
رواية
الطيور لا تغرد منفصلة

الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسم الكتاب: الطيور لا تغرد منفصلة
التأليف: سارة السادات
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 190 صفحة
عدد الملازم: 12 ملزمة
مقاس الكتاب: 14 × 20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2833 / 2017
الترقيم الدولى: ISBN : 978 - 977 - 278 - 668 - 8





دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01012355714 - 01152806533



سارة الساحات



الفصل الأول

اسمي «شهاب الخياط»، أبلغ من العمر ستة وثلاثون عامًا، موسيقار وقائد أوركسترا، مؤلف وعازف بيانو شهير، ألفتُ العديد من المقطوعات الموسيقية التي ذاع صيتها مؤخَّرًا، لستُ في حاجة لأخبركم مدى شهرتي.

يكفي أن تقرأوا ما يكتبه النُّقاد عني، وما يُقال عن موهبتي الفذَّة، والتي صقلتها بالدراسة في الخارج، وبالاطلاع على كل مدارس الموسيقى الغربية والعربية، فأصبحتْ مؤلفاتي مزيجًا من الموسيقى الكلاسيكية والتي كان أشهر مؤلفيها (موزارت) و(بيتهوفن)، والذي كان بدوره حلقة الوصل ما بين الكلاسيكية والرومانسية، كلُّ ذلك ممتزج مع المدراس الموسيقية العربية وقاماتها مثل (محمد عبد الوهاب) و(رياض السنباطي).

ولا يعني هذا أني لا أستطيع التأليف لباقي أنواع الموسيقى الأخرى كالجاز والبوب والروك! أقود الأوركسترا بمنتهى الحرفية لأغزل ثوبًا يليق بي وبالحضور أيضًا، لكنَّ الموسيقى لم تكن نوتات وآلات فقط، الموسيقي كي تكتمل، لا بدَّ وأن تنفخ فيها من روحك، أعلم متى كان العازف يتخذ من عزفه مهنة، ومتى كان العازف يغرد بروحه! عازف العود وعازف الكمان، عازف الناي وقارع الطبل، كل

هؤلاء وجب أن تكون النوتات محفورة بأرواحهم، كي أحصل بالنهاية على نسيج مميز يمتلك مشاعر الحضور، شيء يشبه ترتيل داوود الذي كان يتناغم معه الكون انبهارًا بصوته الشجيّ.

الموسيقى ليست فنًّا بقدر ما هي قدرة للعزف على أوتار المشاعر، لطالما ردَّد النُّقاد أنَّ اسم «شهاب» لم يأتِ من فراغ، وإنما هو لقب أعدته العناية الإلهية تماشيًا مع الموهبة التي منحتها لي، فحينما يستمعون لموسيقاي، يشعرون وكأنها «شهاب» يخطف القلوب لا الأبصار، هكذا يرددون، وكم يُشعرني هذا بالفخر!

وما يُسعدني حقًّا أنهم لا يعلمون أنَّ موسيقاي المذهلة لا تعتمد على عبقريتي في التأليف والتوزيع فحسب، بل إنها ترجع لاختياري أفراد الأوركسترا ببراعة، فأنا أختار مَن يتوافر فيه شرطا الموهبة والروح، لا يعلمون أنَّ سر نجاحي يكمن في بيادقي القوية، والتي بفضلها أصنع ملحمتي الخالدة، وأخص بالذكر «تغريد» و«ريناي»، عازفتان من نوع خاص.

عندما تسمع عزفيهما تكاد تجزم أنه من صنع الملائكة لا البشر، «تغريد» عازفة الكمان وخطيبتي، روح مُغردة خارج سرب النساء، فتاة بقلب رجل ولسان ينطق بالحق، وضمير لا يهدأ، كم أكره ضميرها لأنه يجعلها منيعة! كم يشعرني هذا بالحنق! أنا «شهاب» الذي تترامى أمامه فتيات العائلات وسيدات المجتمع الراقي بدعوات صريحة وأخرى خفيّة لإقامة علاقة، تأتي فتاة ك«تغريد» لتصدني أنا؟! مَن تظن نفسها؟!، وليت الأمر توقف عند خطبتي لها، بل استمر وكأنّ

شيئًا لم يحدث، نعم أحبها، لكن أكره ضميرها ومبادءَها وأكره تعنتها، فما الفارق بين زواج وخطبة؟! أفكارها بالية لكن كما يقال: (الحبُّ نِقمة)!

مشاعرها كبركان خامد تحسبه ساكنًا، وحدي مَن ألمس استعاره مِن الداخل، ولا أقول ذلك لإشباع حاجة في نفسي، إنما كلماتي من منطلق الخبرة بالجنس الناعم، كم هي قريبة وعصيّة! إذ لا سبيل لنيلها إلا عن طريق الارتباط الرسمي كما تُردد دائمًا!

دعونا من «تغريد» الآن، لأحدثكم عن بيدقي الآخر، «ريناي» عازفة الناي، وكأنَّ القدر جعل موهبتها امتدادًا لاسمها، لتكون «ريناي» ونايها جزءًا واحدًا لا يتجزأ، عندما تسمع عزفها، تشعر أنَّ الناي صوت مشاعرك، لا مجرد صوت ينتج من اهتزاز الهواء داخل قصبة جوفاء، وبالرغم من أنَّ صوت الناي حزينٌ يدعو للشجن، إلا أنَّ صوت الناي معها تحسبه صوت أنفاسك الحارة، مَن يستمع إلى عزفها يكاد يجزم أنه يحرك بداخله شيئًا حبيسًا لا يدري كُنهه.

«ريناي» عازفة الناي وصديقة «تغريد» المقربة، والتي لا تترد في التلميح برغبتها في التقرب إليّ! لكنْ وبالرغم من مشاعرها الواضحة لم أقرر مصيرها بعد، هل يدرك أحدكم، أنَّ عين امرأة تُشع بالرغبة هي أجمل عين قد تراها على الإطلاق؟! لذا أحب أن أترك المشاعر في حالة اشتعال، فكلما كانت مشاعر العازف مشتعلة كان اشتعال الأوتار أفضل، هكذا هي «ريناي»، كلما أعطيتها الاهتمام بقطرات زاد لهيبها.

كم هو رائع أن تمتلك بيدقًا يشتعل من أجلك، يخوض معاركك، يحرز لك النصر دون أن تحرك ساكنًا! ما أجمل أن تشاهد الجميع في سباقٍ مُضنٍ للوصول إليك! أحيانًا تصبح الحياة ممتعة أليس كذلك؟! والآن أعلم أنكم تتمنون ألا أفارقكم، لكن ما باليد حيلة، فلديّ حفلة عظيمة وأنا نجمها الأوحد! ماذا؟ تريدون بقية الحكاية! انتظروا واسمعوا عزفي حتى أنتهي، ربما وجدتُ لديَّ بعض الوقت لأكمل لكم!

الفصل الثاني

- حفلة ممتازة بكل المقاييس، كنتَ نجمها الوحيد بلا منازِع، لم يتوقف الحضور عن التصفيق لك بالرغم من إسدال الستار، أهنئك أستاذي.

التفت إليها «شهاب»:

- كل هذا لا يكتمل إلا بنايك يا «ريناي»، فأنتِ نجمة الأوركسترا بلا منازع، «سعيد» حقًّا بوجودك معنا.

- شهادة أعتزُّ بها، شكرًا لكلماتك المجاملة.

- مَن قال إنها مجاملة؟! بالفعل أنتِ إضافة لأي فرقة موسيقية، والناي أحد مزاياكِ المتعددة.

قالها وهو ينظر إليها نظرة شملتها مِن رأسها لقدميها.

تتصنع المرح:

- محظوظة «تغريد»، لا بد وأنك تمطرها بكلمات العشق ليل نهار، أتعلم؟! لولا صداقتي بها ما كنت تركتك أبدًا.

ينظر إليها بتعجب:

- وهل يمنعك هذا حقًّا عن ملاحقتي؟

حرّكت كتفيها علامة عدم الاكتراث:

– أنا لا ألاحق أحدًا، أنا فقط أصحح الأوضاع، أضع الأمور في طريقها الصحيح، ما أنا إلا فاعل خير، فلا تخطئ فهمي.

شبَّك ذراعيه باهتمام:

– عن أي شيءٍ تتكلمين؟!

عذرًا لم أفهم كلماتك جيدًا، ما الذي تقصدينه بالضبط «ريناي»؟

اقتربتْ منه وبصوت كالفحيح أجابتْ:

– يقولون إنَّ حدس الأنثى لا يُخطئ وكذلك عين الرجل، وعيناك تخبراني بأنك تعلم الإجابة، وكلي ثقة أنك تريد ما أريده أنا أيضًا.

ضحك «شهاب» بخفة:

– «ريناي»! «ريناي»! من أول لقاء لنا، أدركتُ أنك امرأة تعشق الألغاز، لكن الألغاز خُلقت للصغار، أما حديثنا فحديث راشدين، أريد أن أعرف ما الذي تريدينه وتدَّعين أني أريده أيضًا.

اقتربتْ أكثر حتى ظنَّ أنها ستقبِّله، إلا أنها سددت نظراتها إليه بكل إغراء تمتلكه ثم قالت:

– أريدك!!.

رفع أحد حاجبيه وبابتسامة تفيض ثقة:

– أعلم هذا جيدًا، لكن ما الذي يجعلك على ثقة أني أريدك بالمقابل؟

– لأني أعرفك كما أعرف نفسي، أعرف تفكيرك، لا تحب التقيد، أرى نظراتك المستترة إليّ، ألمس فيها انجذابًا نحوي، ربما تخشاني لأنك تدرك أننا وجهان لعملة واحدة، الطموح الجامح والرغبة في الفوز حتى وإن كان على حساب الآخرين.

ردد مستهزئًا:

– أنّى لكِ هذه الثقة؟

– لنقل إنها من واقع الخبرة، خبرة لا تقل قدرًا عن خبرتك في عالم النساء، وها أنا أدلي بدلوي وما عليك إلا أن تؤكد كلامي أو تدحضه!

– لكن كيف؟ ماذا عن «تغريد»؟

– تعلم أنّ «تغريد» لا تناسبك، فقط يثيرك اختلافها، تمنُّعها، أنت «شهاب» العظيم الذي تتمناه كل أنثى، تريدها فقط، لأنَّ يدك لم تطلها بعد، صدقني ستملها فور أن تنالها، لا تليق بك، لن تفهم طموحك أو تتفهم متطلباتك بمبادئها وتعنتها، لا يليق بك إلا امرأة تعشقك دون قيد أو شرط.

– ومَن هذه المرأة؟ أنت؟!

– لمَ لا؟! هل بي عيب ما؟!

تهادت أناملها على شفتيه ثم أكملت:

– انظر إليّ وقل إني لا أثيرك!

– «ريناي» أنتِ امرأة مثيرة بكل المقاييس، لكن لا أريد خسارة «تغريد».

اقتربت حتى التصقت به تمامًا:

– ومَن تكلم عن الخسارة؟! ستكون معي ومعها، لن أطالبك بأن تتركها، لأني واثقة من أنك ستفعل ذلك، بعد أن تملَّ مِن براءتها، عندها ستقتنع مَن منا التي تستحقك!

مال عليها مرددًا:

– قلتِ إني أستحق امرأة تعشقني دون قيد أو شرط!

لفّت ذراعيها حول عنقه وهي ما زالت تنظر إليه:

– هذا وعد، دون قيد أو شرط، أنا لك خالصة، بالمقابل أنت لي أيضًا ولا أقصد بذلك «تغريد»، فأنا أعلم أنك لن تطلها إلا بالزواج، إنما أقصد الأخريات، لا مزيد من عبثك معهن.

تململ بين ذراعيها:

– «ريناي»، حياتي لا ينقصها امرأة غيورة، حاولي أن تستمتعي بوجودنا معًا، لتكن علاقتنا خالية من هوس المشاعر وجنون الغيرة، هكذا أفضل لكلينا.

– سأكون لك خالصة في الخفاء، لذا أفضّل أن تكون حياة الخفاء خالصة لي، وحياة العلانية لك وحدك. افعل بها ما تشاء، هذا شرطي الوحيد، ما قولك؟

مال عليها يُقبلها بكل ما أوتي من خبرة، ثم بعد برهة تركها لاهثة:

– موافق بالطبع، والآن عليكِ المغادرة، ربما تأتي «تغريد» بأية لحظة، انتظري مني مكالمة متأخرة، أو ربما زيارة!

قالها غامزًا بعينه.

ضحكت «ريناي» قائلة بغنج:

– أنتظرك بفارغ الصبر!

ثم أمسكت بمقبض الباب وخرجت دون أن تضيف شيئًا آخر، تسير في الرواق منتشية، تشعر بالنصر لتحقيقها أول جزء من خطتها، عندما وصلت لغرفة الموسيقيين كي تأخذ أغراضها، فاجأتها «تغريد»:

– أين كنتِ «ناي»؟! لقد بحثت عنك مطولًا.

– كنتُ بالحمّام أعدل من هندامي، ما الأمر؟

– سأخرج مع «شهاب» الليلة، آسفة لأني دائمًا أفسد خططنا لقضاء الأمسيات معًا، لكن ماذا عليّ أن أفعل؟ إنه نداء الحبّ يا سيدتي!

أتبعتْ كلماتها بانحناءة مسرحية مميزة جعلت «ريناي» تضحك!

– إذا قرر الأمير «شهاب» اختطاف أميرته بعيدًا عن الأنظار ليغردا معًا، هنيئًا لكما «تغريد»، ولو أني ما زلت عند رأيي، «شهاب» لا يستحقك، لكنني لا ألومك أبدًا، فمرآة الحبّ كاذبة، اذهبي واستمتعي ولا تشغلي بالك بي، يمكننا تنفيذ مخططنا في أمسية لاحقة.

اقتربت «تغريد» مُقبلة وجنة «ريناي»:

– أنتِ أفضل أخت وصديقة في العالم، و«شهاب» ليس كما تظنين، لا تشعري نحوه بالغيرة رجاءً، فأنت جزء من روحي، لا تعارض بينكما، سنظل معًا طوال العمر ولن يفرقنا أحد، ثقي بهذا.

أنهت جملتها وهي تنظر إلى ساعتها ثم أكملت:

– حسنًا عليّ أن أذهب، لقد تأخرتُ على «شهاب»، لا بدَّ أنه يستشيط غضبًا الآن، أراكِ لاحقًا حبيبتي.

ظلت «ريناي» تراقب ابتعاد «تغريد» إلى أن اختفت أمام عينيها ثم ردَّدت في نفسها:

- يومًا ما سأكون مكانك و«شهاب» طوع بناني، عذرًا صديقتي لم يترك لي القدر خيارًا ثانيًا، قدرك أنكِ تحصلين دائمًا على الشيء المميز، ومعضلتي أني لا أرتضي الفُتات!

الفصل الثالث

كان «شهاب» يقف بتململ أمام سيارته ينظر إلى ساعته وهو يزفر بغضب.

– حبيبي هل تأخرتُ عليك؟ سامحني كنت أبحث عن «ناي» لأخبرها بأني سأمضي الأمسية معك، بحثت عنها مطولًا مما أخرني، لا تغضب رجاء.

التف «شهاب» فاتحًا لـ«تغريد» باب السيارة دون أن ينبس بكلمة، ثم اتجه إلى الباب الآخر ليتخذ مقعده خلف عجلة القيادة.

– «شهاب» كفاك عبوسًا، كان لا بد لي من إخبارها، تعلم كم هي حساسة، ثم إنه أقل ما تقتضيه الصداقة والأخوة بيننا.

هنا التفت إليها «شهاب» بوجه يختنق بالغضب:

– صداقة وأخوة! ماذا عني؟! ألا تقتضي مشاعر الحب أن تكوني خالصة لي في يوم كهذا، أن تكوني أول المهنئين على حفلة الليلة، توقعت أن تكوني أول من يطرق باب حجرتي ليهنئني على نجاح حفلي الباهر، لكن بالمقابل أجد «ريناي» تطرق بابي، أعلمتِ الآن أين كانت «ريناي»؟ لو أنك تعاملينني باهتمام كما تعاملينها! لو أنك تحاولين الاهتمام بمشاعري! لربما تفهمتِ متطلباتي، لربما علمتِ كم أحتاجك وما كنتُ حينها سأضطر للشرح!

احتضنت يده قائلة:

- «شهاب» حبيبي، ما سبب كل هذا؟ هل أنا مقصّرة لهذا الحدّ؟ منذ متى تكوّن هذا الانطباع لديك؟! أعلم أنك تغار من «ناي»، لكن ليس لهذه الدرجة، يا الله! وكأني أواجه نفس الموقف مرتين، سأقول لك كما سبق وأن أخبرتها، حبي لك يختلف عنها كليًّا، لا تعارض بينكما، فأنت في قلبي وهي جزء من نفسي، «شهاب» ما بك؟

أشاح بوجهه بعيدًا:

- لا شيء «تغريد»، لا شيء، بعض الأشياء لا يمكن شرحها بالكلمات، كيف لي أن اشرح شيئًا لا صدى له لديك؟

أدارت بيدها وجهه إليها:

- حبيبي أعتذر عما سببته لك من غضب، لكن حقًّا لا أعلم عمَّ تتكلم، أكل هذا الغضب من أجل تأخري لبضع دقائق؟ سامحني، لن أعيدها ثانية.

- أتعلمين ما يُغضبني حقًّا؟! ما يغضبني هو أنكِ قريبة وعصيَّة، كالماء تتسربين من بين يديّ، سراب كلما طاردته ابتعد عني، يغضبني أنك تغزلين من الحب كلمات جوفاء، متناسية أنَّ الحب يحتاج أيضًا لأفعال تؤكده.

اعتدلت في مقعدها:

- وما الفعل الذي تريده مني بالضبط؟! ما الذي تعنيه «شهاب»؟

التفت إليها بكل كيانه:

- أريدك «تغريد»، أريد أن أكون معك، فليلة رائعة كهذه لا تكتمل إلا إذا أمضيتِ الأمسية بجواري.

بعدم فهم:

- «شهاب» حبيبي أنا بجانبك بالفعل! فما الذي يمنع اكتمال روعة الليلة؟! هيا لنبدأ سهرتنا.

- إذن هيا بنا إلى منزلنا لنحتفل بنجاحنا الليلة، فلا مكان أفضل منه للاحتفال!

قال جملته ثم شرع في تدوير السيارة.

- مهلًا، مهلًا «شهاب»! عن أي منزل تتحدث؟! أتقصد منزلك؟!!

أخذت نفسًا عميقًا ثم أكملت:

- «شهاب» لمَ لا نذهب إلى مقهانا المفضل؟، نجلس إلى طاولتنا المميزة، فهو مكاننا الخاص منذ أول لقاء لنا، أعتقد أنَّ احتفالنا في مكان يضم جميع ذكرياتنا هو أمر رائع.

التفت إليها:

- لكن وجودنا وحدنا أكثر روعة ألا ترين هذا؟ هيا «تغريد» ستكون ليلة حافلة!

أنهى جملته بابتسامة ساحرة يعلم مدى تأثيرها على النساء.

ابتلعت ريقها بصعوبة أمام هذا الإغراء، فتشاغلت بالنظر ليديها وهي تأخذ نفسًا عميقًا:

- «شهاب» رجاءً، افهمني، لا يمكنني أن أكون معك هكذا، لا

تديُّني ولا مبادئي يسمحان لي بذلك، تعلم أني لن افعلها، ليس هكذا.

التفت إليها وبغيظ ردَّد:

- ولمَ لا؟ ألسنا خطيبين وفي حكم الأزواج؟! أضع خاتمك بإصبعي، والجميع يعلم بارتباطنا، ماذا بعد؟

- نعم خطيبان ولسنا زوجين «شهاب»، تكلمنا كثيرًا في هذا الموضوع، وكان ردِّي واحدًا، «شهاب» رجاءً مبادئي ليست للمفاوضة.

بصراخ ردَّد:

- مبادئك، مبادئك! تبًّا، هل هي قرآن منزل؟ كل شيء قابل للمفاوضة، كل شيء مباح ومتاح في الحب، هذا إن كنتِ تحبينني بالأساس!!

تدافعت الدموع إلى عينيها وبصوت باكٍ:

- أحبك «شهاب» وتعلم هذا، أعشقك، لكن كم مرة وجب عليَّ أن أستجدي تفهمك! كم مرة وجب عليّ أن اصرخ مطالِبة أن تتقبلني كما أنا؟! ألَّا تضعني في حرب مع مبادئي، ألا تجعلني أقاتل نفسي لأكسبك، ألّا تضعني أمام مرآة نفسي فأكسرها وأنكسر، أرجوك «شهاب» استوعب مخاوفي، أخاف أن أكون بقلبك حالة مؤقتة، «شهاب» كن لي سندًا، أحبك فلا تجعل الحبَّ ساحة معركة!

أنهت جملتها الأخيرة بدموع متساقطة.

كان صوت محرك السيارة يطغي على صمته القاتل وصوت نحيبها المُختنق، بعد برهة ودون أن يلتفت إليها تكلم:

- حسنًا كما تريدين، أعتقد أنَّ الوقت قد تأخر، سأقلُّك إلى منزلك.

قال جملته الباترة وهو يمسك بناقل الحركة لتسير السيارة بثلاثتهم، «شهاب» و«تغريد» وصمت قاتل.

الفصل الرابع

قدتُ السيارة بصمت مطبق، تعمدت ألا أتفوه بكلمة أثناء الطريق لمنزلها، أردت أن يمزقها الصراع الدائر بين عقلها وقلبها، أن تحترق بنار حيرتها، أن تتلوى ما بين استسلامها لمشاعرها وتمسكها بمبادئها، أردت أن يكون الصمت سلاحًا يُطبق على روحها فيضعفها، لأرى كم من الوقت ستصمد قبل أن تنهار حصونها كقطع الدومينو المتراصة، تعمدت أيضًا ألا أنظر إليها، ثبتّ نظري على الطريق، دون التفاتة مني نحوها أو اهتمام بصوت نحيبها المختنق.

مَن تحسب نفسها لتقف بوجهي وتُملي عليَّ مبادءَها؟! حسنًا لكل شيء مرة أولى، سأعتبر «تغريد» نزوتي الأولى التي لم تتحقق بعد، تبًّا لها أفسدت عليّ نشوتي بالنصر، لكن من الجيد أنَّ الليلة بأكملها لم تفسد بعد، ما زال لديّ حصان رابح أراهن عليه، مَن سواها؟! «ريناي» بالطبع!

حينما وصلنا أسفل البناية التي تقطن بها «تغريد»، توقفتُ بالسيارة وما زالت يدي تمسك بعجلة القيادة في إشارة بأني سأغادر على الفور، فلا وقت لديّ لأضيعه في مزيد من الجدال الذي لن يُشبع حاجتي ولن يروي ظمئي لها بأي حال، عذرًا «تغريد»، هكذا أنا في حالة ظمأ دائم أبحث له عن ارتواء، وكلمات العشق خاصتك ما عادت تُطفئ شهوتي.

ترجلتْ «تغريد» من السيارة وهي تسألني:

– لم لا تصعد لتحتسي فنجانًا من القهوة؟! تُلقي التحية على أمي وتُمضي معنا قليلًا من الوقت؟

دون أن أنظر إليها:

– لقد تأخر الوقت، ربما في يوم آخر، تصبحين على خير.

– هل أنت غاضب مني؟ هل يعني هذا أننا على خصام؟

قاطعتها:

– «تغريد» لا المكان ولا الزمان مناسبان لمناقشة أمر كهذا، إلى اللقاء.

أنهيتُ جملتي وأتبعتُها بتحريك السيارة دون أن أنتظر حتى تدلف إلى بنايتها كعادتي، أمسكت هاتفي لأتصل بـ«ريناي»، ليأتيني صوتها:

– مرحبًا! طاب مساءُك يا وسيم.

لا، في الحقيقة كنت أنتظر مكالمتك.

– رائع، أمامك نصف ساعة لتجهزي، سأمر عليك لاصطحابك.

بصوت يُشع إغراءً:

– لمَ لا تصعد إلى شقتي؟! يمكننا قضاء بعض الوقت معًا.

– «ريناي»، أكثر ما يعجبني بالمرأة اتقادها وأنتِ شعلة إغراء لا تنطفئ، أنا قادم، لنرَ ما لديك!

– حسنًا، بانتظارك، لا تتأخر.

أنهيت المكالمة وأنا أشعر بأنَّ مزاجي قد تحسن بعض الشيء، شغّلت بعض الموسيقى وانطلقت بأسرع ما يمكنني، فلديّ امرأة حارّة تنتظرني، أمّا عن «تغريد»! فلتُمضِ ليلتها مع دموعها ومبادئها.

***

كان الصمت وصوت بكائي المختنق هو سيد الموقف بعد جدالي المميت مع «شهاب»، قاد السيارة دون أن يلقي إليّ بنظرة أو بكلمة واحدة، كان يعاقبني بالصمت، لطالما علمت أنّ الصمت سلاح قاتل، خاصة في الحبّ، شهر أمامي أقوى أسلحته دون أن يدرك شيئًا عن الحرب الطاحنة بداخلي، حرب ما بين قلبي وعقلي، كل منهما يشحذ أسلحته وبينهما تتمزق روحي، ما عدت أريد شيئًا سوى أن ينتهي هذا الصخب، حاولت أن أتكلم، أن أقطع الصمت، لكن الكلمات كانت تختنق بصدري، حاولت أن أبدد غيوم الغربة الملبدة بالفرقة، والتي تثير البرودة بأطرافي، أن أوقد نارًا بيننا علّي أجد عليها دفئًا يُذيب صقيع قلبي، لكن كنت أشبه بمن يُناجي حجرًا!

عندما وصلنا أسفل البناية التي أقطنها، ترجلت من السيارة ثم دعوته ليحتسيَ فنجان قهوة، لكنه أبى وانطلق مُسرعًا بالسيارة كمن يهرب من الجحيم، ودَّعته وقلبي يئنّ ألمًا.

– أمام باب بيتي، حاولت كثيرًا أن أخفي دموعي، التقطت العديد من الأنفاس العميقة لأبدد ما أشعر به من اختناق، حاولتُ ألا أصدر صوتًا وأنا أفتح باب البيت كي لا تشعر بي أمي.

– «تغريد»! أهذه أنتِ؟»

بصوت خافت حاولت أن أجعله طبيعيًّا:

- نعم أمي، مساء الخير.

- ما بك حبيبتي؟ هل أنت على ما يرام؟

آه يا أمي صوتك يجلب لعيني مزيدًا من الدموع، صوتك يدفعني لأنفجر بكاءً جرّاء ما بي من ألم، كيف لي أن أرى عينيك ولا أنهار أمامك؟!

دون أن أنظر إليها أجبت:

- أنا بخير أمي، فقط أشعر بالتعب وأريد النوم، كان حفلًا مرهِقًا.

اتجهت إلى غرفتي دون أن أعطيها الفرصة لمزيد من الأسئلة، أغلقت باب غرفتي، وارتميت على سريري فقدماي ما عادتا تتحملان ثقل أوجاعي، انخرطت في بكاء عنيف، كم تمنيت أن أرتمي بحضنها وأبدد اختناقي في رحابة صدرها، كم تمنيت أن أخلع أمامها ثوب الفتاة الراشدة وأسالها النصيحة، لكنني أعرف أمي حقّ المعرفة، أعرف ردة فعلها إن علمتْ أي شيء عن جدالي مع «شهاب».

إنها لا ترتاح إليه كثيرًا، فهي أم وأنا ابنتها الوحيدة، ولها حق أن ترتعب عليّ وأن تقيّم الأشخاص بعينِها الخبيرة، لكن «شهاب» إنسان رائع وطموح وليس كما تظن، ربما أفكاره متحررة بعض الشيء، لكنها نفس أفكار معظم شباب عصرنا هذا، الأفكار لا تتجمد ولا تقف عند زمن محدد، بل تتغير بتغير الزمن، أشعر بصدري يختنق، أشعر أنّ روحي تتآكل من الصراع الدائر بين قلبي وعقلي.

يا الله رحمتك بي، لا يمكنني الاستمرار هكذا، ففي كل مرة أتجادل فيها معه ينكسر شيء ما بداخلي، لا أحدًا يسمع دويّ تحطمه، ينكسر وبانكساره تتصدع باقي أجزائي، وفي كل معركة بيننا أحصد فيها نصرًا زائفًا، أفقد فيها جزءًا من روحي، صارت روحي مشوّهة، حتى الأجزاء الباقية بات من الصعب تجميعها لتعطي شيئًا مميزًا، وفي كل مرة يُشهر فيها سلاح الصمت تجاهي أشعر بغربة داخلي، غربة سوداء موحشة تبعث البرودة بقلبي، تأكلني كما يتآكل الحديد بفعل الماء، وبالرغم من ذلك لا أجد لديّ القدرة على فقده أو الاستسلام إليه!

أنهت حديثها مع نفسها محتضنة وسادتها بينما أخذت عيناها تذرفان الدمع كمطر منهمر.

الفصل الخامس

فتاة ناي أدعى «ريناي»، ويمكنك أن تدعوني بـ«ناي»، كما يحلو لـ«تغريد» أن تناديني، يوم أن كنا صديقتين مقربتين، يوم أن كان الطريق يتسع لنا معًا، لكن الأيام لا تُبقي ولا تذر، والحياة خيارات وأولويات، وعلى العاقل أن يوازن خياراته، ماذا عليّ أن أفعل؟ كان عليّ توديع الصداقة، يوم أن أصبح هدفنا واحدًا، أصبح على أحدنا التنحي أو المقاتلة بمنتهى الشراسة لينال مأربه، وأنا محاربة بالفطرة، أقاتل الظروف والزمن والحياة بأكملها، لقد قاتلت لسنواتٍ طوال، حتى بتّ محترفة قتال.

قاتلت قدري يوم أن ماتت والدتي وأتى والدي بأخرى بعد موتها بعدة ليالٍ، يومها تعلمت أنّ البشر يمكن تبديلهم والاستغناء عنهم أيضًا، تعلمت يومها أنّ المشاعر يمكن أن تتغير بنفس سرعة تغيير حمرة الشفاه، حاربت ظروف وحدتي واضطهاد زوجة أبي، صبرت على إيذائها سنينَ طوالًا، حتى أصابها المرض فحان وقت السداد، لن أخبركم كيف سددتْ دينها لي، لن أخبركم كيف قضت آخر أيامها تتمنى لو أنها لم تولد من الأساس، لن أخبركم عن صرخات الرحمة التي كانت ترددها كل مساء

كل ما أستطيع قوله، إن الموت كان أكثر رحمة بها مني، إنّ الموت يصبح أحيانًا يدًا حانية على المرء، يدًا قد لا تجد مثلها عند البشر، إنها الآن ميتة وعليّ أن أذكر محاسن الموتى أليس كذلك؟!

ولكي أثبت لكم صدق مشاعري، سأخبركم أحد أفضالها عليّ، فبفضلها تعلمت العزف على الناي! ولو أني كنت أفضل أن أصبح عازفة بيانو أو عازفة كمان، لكن الأماني تنتقي طالبيها بعناية، وأنا ما تمنيت شيئًا إلا وابتعد! لذا كان عليّ أن أشق طريقي بما هو متاح لديّ، ولم يكن متاحًا لديّ سوى الوحدة والفقر!

تعلمت الناي بفضل زوجة أبي، حيث كانت تغمر رأسي في المياه بليالي الشتاء الباردة، لا لشيء سوى أن تنفس عن غضبها من أبي! فتعلمت حبس الأنفاس وكيفية تنظيمها، علمتني أن أقمع صرخاتي، فيخرجها الناي آهات، بفضلها صرت عازفة ناي يشار إليها بالبنان، كل ما سبق خدمني بشكل أفضل لأني كنت أعرف طريقي جيدًا، وهذا يعيدنا لنقطة البداية، لي أنا، «ريناي»، عقل لا يهدأ وحدس لا يُخطئ، «ريناي» التي ما وطئها أحد، إلا واكتشف أنه في النهاية مجرد درجة من درجات سلم موسيقي أطأه بقدمي لأعزف ملحمتي الشخصية.

كم يُسعدني أن أرى علامات الدهشة على وجوههم عند اكتشاف الحقيقة، حقيقة أنهم لم يكونوا سوى دُمى في مسرحية من تخطيطي أنا، كم أشعر بالفخر لكوني «ريناي» التي تعرف ما تريد ولا يوقفها شيء عن نيله!، حتى وإن كانت «تغريد»، أصدق مَن قابلتهم على الإطلاق، وأنا ما قابلت سوى أشباه البشر! خسارة أني سأفقدها، لكن بعض الخسارة مكسب، تفقد شيئًا لتنال شيئًا أكبر منه، سأخسرها لأنال «شهاب»، «شهاب» العظيم كما يحلو للنقاد أن يدعوه!

«شهاب» حلم كل أنثى، فتى الأحلام كما تنسجه الروايات، علامة موسيقية مميزة، يكفي أن تكون الحفلة بقيادة «شهاب» حتى تنفد التذاكر وتمتلئ الصالة بالكامل، «شهاب» البعيد القريب، «شهاب» الذي أرى بعينيه ما لا يخطئه حدس امرأة، خاصة وإن كانت امرأة مثلي، مرَّ بساحاتها الكثير، «شهاب» لي ولن يمنعني أحد عن نيله، وإن كان «شهاب» نفسه»!

أيدرك أحدكم مدى القوة التي سأتمتع بها بمجرد اقتران اسمي به؟! أتريدون أن تعرفوا كيف سأفعل هذا؟ انتظروا معي ربما تعلمتم مني شيئًا، فبعد بضع دقائق سيأتي «شهاب» إلى بيتي لأول مرة! فكما توقعت، سهرته مع «تغريد» لم تكتمل، ربما لأنه عرض عليها للمرة المائة أن يقضيا الأمسية معًا بشقته، وهي بالتأكيد رفضت كعادتها، أعلم كيف تسير الأمور، فهذا طبع المنتصر، و«شهاب» قد حقق بحفلته الليلة انتصارًا مدويًا، والاحتفال أحد مظاهر النصر، إلى جانب الغنائم بالطبع!

و«تغريد» لا تُجيد هذا النوع من الاحتفال، إذ تمنعها مبادئها العقيمة عن فعل ذلك! لذا طبيعيًّا أن يأتي إليَّ بعد اتفاقنا المبرم بغرفة المسرح، البشر سهل التنبؤ بأفعالهم، البشر نسخ مكررة، وها أنا أنتظره وقد أتممت جميع الاستعدادات التي تليق بحفلنا الأول، احتفال ظاهره نصر «شهاب» وباطنه انتصاري أنا، «ريناي».

الفصل السادس

أمام باب «ريناي» أقف، أمسك بهاتفي وأتصل:

– أنا أمام الباب.

ما إن أنهيت جملتي حتى وجدتها تفتح لي الباب وعلى وجهها أجمل ابتسامة قد تمنحها امرأة، ابتسامة تفيض بالإغراء والكثير من الوعود.

بادرتني قائلة:

– مرحبًا يا وسيم، تفضل.

نظرت إليها نظرة تقييم، كانت ترتدي فستانًا أنثويًّا بلون النبيذ الأحمر، بينما طلت شفتيها بلون مثله، فصارت شفاهها كتفاحة طازجة وجب عليّ التهامها، كم أعشق المرأة التي تعتني بنفسها جيدًا!

– ألن تأتي للداخل يا وسيم؟! لا تخشَ شيئا فأنا لا ألتهم أحدًا!!

كانت جملتها تفيض بالإغراء القاتل، فما كان مني إلا أن دلفت للمنزل مطوقًا خصرها بذراعي قائلًا:

– لكنني أفعل.

تضحك عاليًا:

– سنرى، لكن ليس الآن، هيا «شهاب» لا بدَّ وأنك متعَب!

دعني أقودك للصالة لتلتقط أنفاسك، تشحذ قوتك، ثم من بعدها يمكنك استعراض مهاراتك.

محررًا إياها من أسر ذراعي:

- «ريناي» لا وقت لديّ لذلك، حاليًا أنا جائع، جائع جدًّا.

تمسك بيدي قائلة:

- لا تستبق الأمور، لترى أولًا ما أعددتُه لك.

أنهت كلماتها وهي تقودني إلى الصالة، ثم أكملت:

- شغّل بعض الموسيقى ريثما أعود لك، تصرف كأنك في بيتك.

قالتها غامزة!

ربّاه كل ما فيها مغرٍ، لا أستطيع صبرًا لأنالها، حسنًا «ريناي» لِنرَ ما لديك!

وجدت لديها اسطوانات لجميع معزوفاتي الموسيقية، انتقيت أحبها لقلبي فشغلتها، أثناء تفرسي في الصالة، وجدت بيانو في ركن قصي لم أنتبه له فور دخولي، اتجهت ناحيته، لامست مفاتيحه وأفكاري تتصاعد حدتها، مفاتيح بيضاء ك»تغريد»، وأخرى سوداء مثل «ريناي»، وأنا عازف بيانو شهير وعليّ استغلال ذلك جيدًا، عليّ استخدام تضادهما لأعزف ملحمتي.

- أرى أنَّ شيئًا ما قد لفت انتباهك!

قالتها «ريناي».

ألتفت إليها سائلًا:

– هل تجيدين العزف عليه؟

اقتربت وهي تناولني كأس نبيذ:

– أعرف العزف قليلًا عليه، تعلم ذاك القليل الذي يجب على كل موسيقي أن يعرفه، أي يمكنك اعتباري مبتدئة، وبما أنك أستاذي فعليك أن تعلمني، ما رأيك؟

قالت هامسة وهي تميل عليّ ناظرة إلى عينيّ نظرة دعوة واضحة.

ارتشفت كأسي دفعة واحدة ثم قلت:

– حسنًا لنبدأ الآن، تركت الكأس من يدي فلم يعد هناك مجالٌ للكلمات، سرعان ما حملتها بين يدي وأنا أنهل من شفتيها دون أن أعطيها مجالًا للثرثرة، سألتها أيّ غرفة! أشارت ناحية اليمين، اتجهت حيث أشارت ثم وضعتها فوق الفِراش، تحررتُ من الجاكت وحللت ربطة العنق في عجالة.

اعتدلت «ريناي»:

– مهلًا، مهلًا «شهاب»، لا تفسد سهرتنا بتسرعك، دعني على الأقل أعاملك كما يعامَل الملوك العائدون من النصر.

ضحكتُ متهكمًا:

– وكيف ذلك؟! «ريناي» لو كنتُ ملكًا، لكنتِ جارية لديّ أبادلك كل ليلة مع أخريات، أو ربما محظيّة على أحسن تقدير، هيا «ريناي» دعكِ من هذا.

غادرت الفِراش قائلة:

- لو كنتَ ملكًا لكنتُ مليكتك، بعض المحظيّات أصبحن ملكاتٍ وسطّرن اسمهن في التاريخ، كشجرة الدُّر مثلًا، لذا لا تستهِن بي أبدًا.

قالتها ثم أدارت مشغل الأغاني على موسيقى شرقية!

ضحكتُ قائلًا:

- ما هذا «ريناي»؟!.

- دعني أريك بعضًا من مهاراتي، سأرقص لك!

قالت جملتها وهي تميل عليّ.

لم أملك إلا أن أتقدم نحوها، أخذتْ تتمايل أمامي كأفعى ناعمة، كفاها تزحفان على صدري لتلتقيا بالنهاية حول عنقي، كل ما بها يُذكي نار جوعي، كل ما تفعله يُفقدني السيطرة على نفسي، حملتُها واتجهتُ للفِراش، فقد اكتفيت صبرًا لهذا المساء.

***

استيقظت على صوت هاتفي النقال، بالبداية لم أتذكر أين أنا وما الذي حدث، ثم عاودتني الذاكرة دفعة واحدة، نظرت حولي فلم أجد «ريناي»، قمت على مضض أبحث عن هاتفي حتى انقطع الرنين! حاولت أن أجمع ملابسي، فإذا بهاتفي يعاود الرنين مجددًا، أمسكتُ به وأجبت:

- ألو.

- «شهاب» أين أنت؟! لقد مررت على منزلك فلم أجدك!

كان ذلك «رامز» مدير أعمالي ومنظم حفلات الفرقة.

بصوت متأفف أجبت:

- «رامز» لمَ تصيح بوجهي هكذا؟! ثم ما الذي يدفعك لتمرّ بمنزلي باكرًا؟

- باكر؟! الساعة الواحدة ظهرًا «شهاب»، حسنًا لتخبرني أين أنت وأنا سآتي إليك في الحال، عندي خبر رائع لا يمكن تأجيله.

- اذهب إلى مقهانا المعتاد سآتيك بعد نصف الساعة.

قلتها ومن ثم أغلقت الهاتف، ضغطت بأصابعي على ما بين عيني، قمت بجولة استكشافية في البيت، لا أثر لـ«ريناي»! أخذت حمامًا منعشًا ثم ارتديت ملابسي في عجالة، عندما أمسكت قبضة الباب هامًّا بالخروج، وجدت ورقة مثبتة عليه من الداخل كتب فيها:

(صباح الخير يا وسيم، اضطررت للذهاب باكرًا لمقابلة «تغريد»، إن لم يكن لديك خطط لليلة فأنا أنتظرك، مليكتك «ناي»).

خرجت من المنزل وعقلي تسيطر عليه فكرة واحدة: «تغريد»!

الفصل السابع

قدت سيارتي وعقلي يفكر بـ«تغريد»، بالتأكيد ما زالت تلتحف بحزنها منذ البارحة، لعلها أرادت أن تحكي لـ«ريناي» عما حدث بيننا، كم يبدو هذا مضحكًا، أن تحكي لـ«ريناي» التي لم تُفق بعد من معركة الحب الصاخبة ليلة أمس! معركة ما زالت آثارها على جسدينا، ابتسمت لمفارقات القدر، فـ«تغريد» باتت ليلتها ملتحفة بحزنها، بينما باتت «ريناي» ملتحفة برغبتها، يا للسخرية!

ذهبت إلى منزلي لأبدل ثيابي على عجالة ومن ثم انطلقت إلى المقهى حيث «رامز»، «رامز» المثالي جدًّا ورجل الكلمة! فالكلمة بالنسبة إليه وعد يجب أن ينفذ، كم أمقت مثاليّته وجديّته! إننا لا نتفق كثيرًا على المستوى الشخصي، لكنه حقًّا مدير أعمال بارع ومنظم حفلات من الدرجة الأولى، لديه القدرة على حصد ثقة الممولين واحترامهم بلا حدود، وهذا ما يجعلني أبقي عليه، لكنه ينتمي لذلك النوع الذي يثير حنقك وكأنه سيد الأخلاق العليا، لكنني أعلم أنه لو واتته الفرصة لكان شيطانًا متجسدًا، فكم من رماد يحوي بداخله استعارًا!

حينما وصلت ركنت سيارتي وسرت إلى الداخل.

عندما رأيته اتجهت إليه مُحيّيًا:

- «رامز».

- «شهاب» العظيم، كيف حالك؟!

قالها مصافحًا:

- تفضّل

جلسنا وهو يشملني بنظراته:

- أرى أنَّ ليلتك كانت حافلة! لكنها بالتأكيد لم تكن مع «تغريد»، مَن هي هذه المرة؟

نظرت إليه ببرود:

- «رامز» اطلب لي فنجان قهوة وكفَّ عن الثرثرة.

- حسنًا، كما تريد.

قالها «رامز» وهو يشير للنادل أن يأتي بفنجان قهوة سادة.

- هاتِ ما لديك.

قلتها وأنا أشعر بصداع خفيف يطرق رأسي.

- اتصل بي مدير مكتب العلاقات العامة بمؤسسة الرئاسة أمس بعد انتهاء حفلتك، أخبرني أنَّ هناك وفدًا روسيًّا رفيع المستوى سيزور مصر بعد ثلاثة أشهر، وسيتم إقامة حفل بدار الأوبرا ترحيبًا به، ستكون أنت قائد الأوركسترا التي تُحيي الحفل، بالطبع أخبرته أنك لا تعمل إلا مع فرقتك، فأكد لي أنَّ زوجة السفير الروسي بمصر قد طلبت الآنسة «تغريد» والآنسة «ريناي» بالاسم لأنها معجبة بكلتيهما كثيرًا، مما يعني أنه يجب عليك أن تؤلف مقطوعة موسيقية جديدة لكل منهما، واحدة للكمان والأخرى للناي! يجب أن يكون الحفل مميزًا، ها ما قولك؟ هل يمكنك هذا؟!

نظرتُ إليه ببرود يشوبه الملل:

- «رامز» اهتم بشؤونك فقط، ما يهمني حقًّا هو أن يكون الحفل على قدر من التنظيم بحيث يليق باسمي أولًا، أعتقد أنَّ ثلاثة أشهر كافية لتقوم بتنظيم ممتاز للحفل أليس كذلك؟

بالطبع «شهاب»، وأكثر من كافية. -

- حسنًا اتفقنا، تعامل معهم كالمعتاد وانهِ جميع الأمور المادية والورقية معهم، إن احتجت إلى أي إمضاء تعلم أين تجدني.

ما إن أنهيتُ جملتي حتى أتي النادل بالقهوة، ارتشفتها في صمت مطبق معلنًا نهاية لقائنا.

- أتريد شيئًا مني؟! سأضطر إلى تركك الآن لأنهي بعض الأمور العالقة.

قالها «رامز» وهو يهمُّ بالمغادرة.

- شكرًا «رامز»، نلتقي لاحقًا.

أخذ متعلقاته وسار مبتعدًا، بينما مكثت أرتشف قهوتي وأنا أستمتع بمشاهدة نظرات الإعجاب والانبهار من رواد المقهى حولي، إنه شيء يستحق المشاهدة أليس كذلك؟!

❋❋❋

ستيقظت على صوت هاتف المنزل، قمت بتململ وأنا أشعر بإجهاد ساحق، أكاد أتساقط، كانت ليلة صاخبة انتهت بمعركة حب أسطورية لا تقل شغفًا واتقادًا عما يحدث بالروايات، حقًّا كم هو رائع «شهاب»، نهر لا ينضب أبدًا.

اتجهت إلى الصالة حيث الهاتف، التقطته بتخاذل:

- مرحبًا.

- «ناي» هل ما زلتِ نائمة؟! أرى أني أيقظتك، آسفة «ريناي» اذهبي وأكملي نومك، نتحدث لاحقًا.

بصوت ما زال يحمل آثار النوم:

- لا حبيبتي لقد استيقظت بالفعل، ما بكِ؟

بصوت مختنق:

- «ناي» آسفة حقًّا، لكنني أشعر بأني لست على ما يرام، حقًّا أحتاجك، أشعر باختناق، صدري متضخم بالكلمات، أشعر بحزن يقتات على روحي ولا أجد لي ملجأ سواكِ!

نظرتُ تجاه الغرفة التي بها «شهاب» قائلة:

- إنه «شهاب» أليس كذلك! هل تشاجرتما؟

بصوت مختنق بالعبرات:

نعم، رجاء «ناي» تعالي إلي أو آتي أنا إليكِ. -

صرختُ بانفعال:

- لا، لا، أنا من سآتي إليكِ، لألقي التحية على والدتك وأنعم بإفطارها اللذيذ، فقط مسافة الطريق وأكون عندكِ، انتظريني!

أنهيت المكالمة وأنا أتساءل، ما الذي كان سيحدث لو أنَّ «تغريد» أتت إلى هنا ورأت «شهاب»؟!

صحيح أنها ستعرف كل شيءٍ في وقت ما، لكن الطريق ما زال بأوله، وخطتي لم تكتمل بعد، كل شيءٍ جيد بوقته، ووقت الحقيقة لم يحن بعد.

اتجهت إلى الحمام لأزيل آثار النوم والحب أيضًا، ارتديت ملابسي وتجهزت ثم كتبت رسالة لــ«شهاب» أخبره بذهابي لبيت «تغريد»، ثبتها على باب الشقة وخرجت.

– أمام باب بيت «تغريد» أقف، استقبلتني والدتها مرحبة:

– مرحبًا «ريناي» حبيبتي، اشتقت إليك كثيرًا، لم أعد أراك كما في السابق.

دلفت إلى المنزل:

– أنا أيضًا اشتقت إليك كثيرًا خالتي، أعتذر عن غيابي، فكما تعلمين الأستاذ «شهاب» يعاملنا كملكية حصرية، يهلكنا بالتدريب المستمر، يعاملنا كأسرى حرب حينما يتعلق الأمر بالحفلات، تعلمين كم هو مزعج فلا داعي للشرح!

أنهيت جملتي وأنا أضحك.

– معك حق «ريناي»، نعم أعلم كم هو مزعج!

قالتها وهي تقودني إلى غرفة «تغريد»، ثم توقفت هامسة:

– «ريناي» أشعر أنَّ «تغريد» ليست على ما يرام منذ أن عادت من حفلة أمس، حدسي يخبرني أنَّ السبب «شهاب»، رجاء ادخلي إليها وحاولي أن تفهمي منها، القلق يأكلني، أريد الاطمئنان عليها لكنها تأبى أن تبوح لي بما يحزنها، رجاء ابنتي طمئنيني عليها.

- خالتي، «تغريد» فتاة عاقلة ولديها فكرٌ واعٍ ومبادئ كالسيف، اطمئني سيكون كل شيء بخير.

- كم أتمنى ذلك «ريناي»!

قلت مشاكسة:

- اشتقت لإفطارك اللذيذ خالتي، أحتاج لشيء حلو المذاق لأتغلب على مرارة الداخل!

أنهيت جملتي وأنا أشير إلى غرفة «تغريد»

حسنًا «ريناي»، ادخلي إليها وأنا سأعد إفطارًا لنا جميعًا.

أنهت جملتها ثم سارت مبتعدة.

***

أمام باب غرفة «تغريد» أقف، أرسم وجهًا بريئًا يحمل اهتمام العالم والقلق، أستعيد وجه «ريناي» الصديقة، قد لا تصدقونني، لكن تبقى «تغريد» بالنسبة إليّ مميزة، ولولا «شهاب» الغبي ما كنت غدرت بها.

طرقت باب غرفتها:

-»تغريد»!

لمْ تمضِ ثوان حتى فتحت لي:

- «ناي» حبيبتي!

احتضنتني ثم انخرطت في بكاء عنيف، أغلقتُ الباب جيدًا ثم ساندتها إلى الفراش.

- رباه «تغريد» ما الذي حدث؟! ما سبب هذا البكاء؟!

من بين دموعها:

- «شهاب» يا «ناي»، «شهاب»، لا أعلم ماذا به! إنه يقتلني، يساومني على مبادئي، أشعر أني سأموت قهرًا، كيف له أن يفعل بي هذا؟! كيف؟

- فقط اهدئي وأخبريني ما الذي حدث كي أستطيع مساعدتك.

قصت عليّ كل ما دار بينهما من جدال، كما توقعت بالضبط، لا شيء أسوأ من أن تكون كتابًا مفتوحًا يمكن للآخرين قراءته، حينها يسهل التنبؤ بأفعالك وبمشاعرك، حينها تسدد لك الطعنات بمنتهى الدقة، حينها يصبح من السهل إيذاؤك وجرحك، لذا عودت نفسي منذ زمن أن أكون طلسمًا يصعب على الآخرين فهمه أو قراءته.

أخذت نفسًا عميقًا:

- «تغريد»، لن أعطي رأيي الخاص فيما حدث، حتى لا تظني أني أتحامل عليه، لكن عزيزتي لا يُمكنكِ السكوت، لا يمكنك اللجوء إلى الحزن والبكاء، تاركة الأمور بينكما عالقة، لم أعهدك ضعيفة هكذا ثم بالله عليك ما الذي يمنع زواجكما؟! ما الذي ينقصكما؟! إن كان يحتاج إليك هكذا فلتتزوجا، أما بقاء الأمر على هذا الوضع فهو استنزاف للروح والكرامة، رباه لو علم أخوكِ بهذا الأمر، ماذا ستكون ردة فعله؟! هل يمكنك أن تتخيلي؟!

«تغريد» من بين دموعها:

- لا أعرف «ناي»، أنا ممزقة إذ لا يمكنني أن أطلب من «شهاب» التعجيل بالزواج، كبريائي يمنعني من ذلك، ولا يمكنني الابتعاد عنه، فأنا أحبه حقًّا.

قالت جملتها ودموعها ما زالت تنهمر.

- لكن كبرياءك يسمح لك بتقبل الإهانة منه مرة تلو الأخرى، أليس كذلك؟! بالله عليكِ كم مرة خضتما هذا النقاش! كم مرة فقدت فيها جزءًا من روحك بسبب جدالك معه! يومًا ما لن يبقى من روحك شيء، تقتلين نفسك بالاستمرار هكذا.

- ماذا عليَّ أن أفعل «ناي»؟! أنا تائهة، مشتتة حد الضياع، روحي مستهلكة وعقلي مستنزف، أخبريني «ناي» ماذا عليّ أن أفعل! لا أريد أن أخسره أو أخسر نفسي.

- هو من يخسرك حبيبتي، هو من يخسرك في كل مرة يعزف فيها نفس النغمة، نغمة الاحتياج، هو من يحرق جسور التفاهم بينكما في كل مرة يحاول فيها التفاوض على مبادئك، في الحياة لا يمكننا الحصول على كل شيء، الحياة تختبرنا وأنت «تغريد» لا يمكنك أن تسقطي في الاختبار، ليس من أجلك فقط وإنما من أجل والدتك.

أنهيت كلماتي ثم اتجهت لنافذة الغرفة، أنظر من خلالها لأشاغل عيني عن رؤية دموع «تغريد»، كي لا يرق قلبي من أجلها، بعد برهة أكملت:

- أتعلمين ما كنت سأفعل لو تبادلنا الأدوار؟

تتطلع إليّ بأمل:

- ماذا؟

ألتفت إليها:

- ما كنت سأبكي كما تفعلين الآن، كنت سأتخذ فورًا قرارًا بالابتعاد، من لا يحترمني ويحترم مبادئي فلا حاجة لي به، اتركيه «تغريد» اتركيه، يبدو أنَّ «شهاب» هذا رجل لعوب، وأنتِ تستحقين من هو أفضل منه.

تصمت لبرهة، تكفكف دموعها:

- حسنًا «ناي»، لا يمكنني أن اتخذ قرارًا مصيريًّا كهذا، خاصة وأنا بهذه الحالة، سأتحدث معه أولًا، ومن ثم أقرر بعدها.

قلت صارخة:

- ستتحدثين عن ماذا؟! ألم يكفِكِ حديث البارحة؟! حقًّا لا أفهمك.

- سأتحدث معه عن كل ما أشعر به وبما تسببه لي نزعاته من حزن، سأجعله يختار مستقبلنا معًا أو كل منا يمضي وحيدًا، لكن علي أولًا أن أجمع شتات أمري ونزع حالة الضعف هذه عني، أحتاج لوقت أعيد فيه ترتيب أوراقي.

- إذن ستقابلينه اليوم!

- لا أعتقد، كما قلت لكِ أحتاج إلى وقت.

مسحت آثار دموعها من صفحة وجهها ثم اقتربت مني معانقة:

– شكرًا لك «ناي»، لقد أراح قلبي الحديث معك، دمت لي سندًا حبيبتي، أتعلمين؟ لم أرَ أمي منذ البارحة، هيا لنذهب إليها لتعد لنا إفطارًا لذيذًا، هيا!

قالتها وهي تهم بالمغادرة.

قلت مشاكسة:

– لقد سبق وأن طلبتُ منها أن تعد لي وحدي شيئًا لذيذًا يتغلب على مرارة حزنك!

– وحدك فقط؟!

إذن قمت باستغلال حزني للحصول على إفطار أم «تغريد» اللذيذ، لكنك لن تهنئي به وحدك!!

قالت ضاحكة، هيا سأسابقك إلى المطبخ!

أنهت كلماتها خارجة من الغرفة مسرعة، بينما لسان حالي يردد:

– حسنًا «تغريد» خذي ما تشائين من وقت، لكن «شهاب» في النهاية لي وحدي، ليتك تتركينه الآن وتقين نفسك الآلام التي ستحصدينها جراء شروري.

الفصل الثامن

أمضيت معظم اليوم ببيت «تغريد»، نسترجع الذكريات، ذكرياتنا معًا، كم هي ساذجة! فهي لا تدرك أن امرأة تلتحف بالذكريات، هي امرأة قابلة للاحتراق، و«تغريد» فراشة يُغريها أقل بصيص من الضوء، فيُعمي عينيها عن رؤية الظلمات المحيطة بها، لذا كان مصيرها أن تحترق وقدري أن يكون احتراقها بيدي! وكما كانت «تغريد» لا ترى إلا النور، كنت أنا لا أرى إلا الظلمة.

وبالرغم من اعتزازها بذكرياتها المكدسة، لا أحتفظ أنا إلا بالسيئ منها، كي لا أنسى وجوه من آذوني، وتتملكني الإنسانية فأنهار وأضعف، كي لا تأخذني بهم رحمة أو شفقة فأكرر الأخطاء مرة أخرى، أفضل إبقاء الجراح نازفة لا تمتد إليها يد الغفران، كي لا تخفت نار انتقامي، أحب أن تظل ناري متقدة، فلا حطب أفضل من الذكريات الأليمة!

بعد أن غادرت منزل «تغريد»، وفي طريقي لمنزلي اتصلت بـ«شهاب»:

- مساءُك طيب يا وسيم، أين أنت؟

- أنا ببيتي «ناي»

- هل لديك خططٌ لليلة؟

– أخبريني قبلًا ماذا قالت لك «تغريد»؟

– لقد أحزنتني يا وسيم، أسألك عن خططك لليلة وتسألني عن امرأة أخرى، لقد كسرتَ قلبي المسكين.

– حسنًا «ناي» لمَ لا تأتين إليَّ لأعالج الكسر!

ضحكت قائلة:

–لا، أفضل أن ألقاك ببيتي، فلست مشهورة مثلك يحاصرني الإعلام والصحافيون.

– حسنًا انتظريني الليلة.

– ليكن بعلمك أنك ستمكث معي لعدة أيام، لن أسمح لك بالذهاب سريعًا، لذا أرجو أن تأتي مصطحبًا معك أوراقك، تعلم أنَّ لدي كل المقومات لعملك.

– معك «ناي» لا أفكر إلا بشيء واحد تعلمينه جيدًا.

تضحك عاليًا ثم تجيبه بغنج:

– سنعالج معضلة التفكير بتنفيذه، ثم من بعدها سأشجعك لإنهاء نوتاتك وتقييمها وبالنهاية سأصفق لك.

يضحك عاليًا:

– عندها سأحتاج لأكثر من التصفيق «ناي»، إلى اللقاء.

أغلقت الهاتف وأنا أحاول الترتيب لموعد الليلة، أراجع بعقلي الخطط وأسد الثغرات، أنتقي أقصر الطرق لأحقق هدفي، أحتاج لكل حكمة وحنكة، لأختار الوقت المناسب لأحقق غايتي.

***

أغلقت الهاتف مع «ناي»، وعقلي يفكر في حفلة الوفد الروسي، إذ عليّ تأليف مقطوعتين (كونشرتو) يعتمدان على آلتي الكمان والناي، وتأليف سيمفونية للأوركسترا ككل، ولكي تكون المقطوعة حية لا بد أن أغدق عليها من روح صاحبها، يسهل عليّ أن اؤلف الكونشرتو الخاص بـ«تغريد»، فهي تشبه كمانها، ناعمة حالمة، مهما صرخت نوتاتها تظل تشجي الآذان دون نشاز أو ملل، لكن يصعب علي إيجاد كونشرتو يشبه «ريناي» بكل تناقضها.

فـ«ريناي» كنايها، عميقة صابرة صامدة، لا تعرف الاستسلام، ترقص معك رقصات الحب والحرب معًا بنفس القوة والنِّدية، صاخبة تارة وناعمة تارة أخرى، أنثى كالأفعى غامضة وساحرة، تروض نزعاتك، وتراودك عن نفسك بنفس الوقت، بالنهاية أنت قتيلها أو أسيرها لا خيار آخر.

حسنًا سأبدأ بـ«تغريد» وأترك «ريناي» للنهاية، ربما تكشفت لي روحها وسهل عليّ فكَّ رموزها، أو ربما اكتشفت أن نظرتي لها كانت أكبر من قدرها، مَن يعلم ربما!

:(Concerto)

- كلمة لاتينية أصلها كونسرتار أو كونستوس، يكون فيها الأداء منصبًّا على آلة رئيسية كالكمان أو آلتين بجانب بعض الآلات الثانوية.

السيمفونية: - هي مؤلف موسيقي يكتب من أجل الأوركسترا ككل.(Symphony)

* * *

أتأنق جيدًا، أضع عطرًا وقرطًا ماسيًّا، ألون شفاهي بحمرة قانية، أرتدي ثوبًا جديدًا، ليس عاريًا، لكنه يحمل تفاصيل ستبقيه مشغولًا، موسيقى حالمة، شموع وورد، طاولة وعشاء فاخر لم أعده بالطبع، إنما طلبته من أحد المطاعم التي يعشقها «شهاب»، نصيحة إذا أردتِ إبقاء رجل ما بحياتك، اجعليه مشغولًا بكِ، يدور حولك كجرم في فلك، إذا خرج عن مداره هلك.

حينما يسألك اجعلي إجاباتك بابًا لأسئلة أخرى، أبقِه في عطش دائم لا ارتواء له، اجعليه أسير جرعات الحب المتقطعة، لا تلقي بما في جعبتك مرة واحدة، أعطيه كل ما يريد لكن بقدر لا يغني ولا يسمن من لهفة، غير هذا سيمتصك حتى آخر قطرة، ومن ثم سيتركك كورقة خريف، ذابلة صفراء لا تسر الناظرين، تتقاذفها الريح كيفما تشاء، وبالنهاية تسقط أرضًا فتخطو عليها الأقدام!

دقائق ويأتي «شهاب»، دقائق وتبتدئ نهاية البداية، يقال إن من يضحك أخيرًا يحقق أحلامه الكبيرة، أليس كذلك؟!

جرس الباب يدق، لا بدَّ أنه «شهاب»، أرسم وجه العاشقة وأفتح الباب مرحبة:

- أهلًا يا وسيم.

- دون أن يتفوه بكلمة كعادته نظر إلي مقيمًا:

- أرى أنكِ لم تمضِ الوقت سدى.

- حسنًا يا وسيم، أنت لم ترَ شيئًا بعد، قلتها وأنا أقوده إلى الصالة وقبل أن أكمل، ضاعت كلماتي بفمه!

بعد دقيقة تراجعت للخلف ضاحكة بإغراء:

– دائمًا تتعجل الأمور «شهاب»، لكن هذه المرة لن أسمح لك، قلتها واضعة إصبعي على شفتيه.

مقبلًا إصبعي:

– ماذا ستفعلين لإيقافي! هل سترقصين لي مرة أخرى؟!

قالها غامزًا.

اقتربت منه حد الالتصاق به:

– بل سنرقص معًا على ضوء الشموع وأنغام الموسيقى، نحتسي شرابًا خفيفًا مع عشاء فاخر، الليلة ما زالت بأولها، دع الأمور لي وسأجعلها لك ليلة أسطورية، ماذا قلت؟

– حسنًا سيدتي كلي ملكك، أترك مقاليد الأمور بيدك.

– حسنًا سيدي دعني أولًا أضع أوراقك بمكانها الصحيح، ثم أدير مشغل الموسيقى وأعد الشراب، تركته لأضع النوتات بمكانها أعلي البيانو مخاطبة إياه:

– سأضعها فوق البيانو لكن لا عمل الليلة، الليلة أنت لي، ومن الغد سنعمل معًا.

يضحك بانتشاء:

– يبدو هذا مشجّعًا بالفعل.

أنهيت وضع الأوراق ثم اتجهت إلى مشغل الموسيقى فأدرته على موسيقى ناعمة، ملأت الكؤوس وناولته كأسه، فارتشفه مرة واحدة كعادته.

- سيدي هيا لنبدأ الرقص!

ترك الكأس واعتقلت يداه خصري بشدة:

- أخبريني أولًا ماذا قالت لك «تغريد»؟

«شهاب»! كم أنت قاتل للرومانسية! أقول لك ليلة أسطورية، فتحدثني عن «تغريد»!، الليلة أنت ملكي، لا «تغريد» ولا مشاكلها التافهة، يكفي أني أمضيت معظم اليوم أستمع لهذيانها عن مشكلتها معك والتي بشكل ما تحسبها معضلة!

- هي تراها معضلة لأنّ «تغريد» ليست مثلك، متفهمة!

قالها ضاحكًا بسخرية.

- وهل أبدو لك كامرأة متفهمة فقط؟!

قلتها بهمس.

- «ناي» هيا، هيا «ناي» دعينا نكمل حديثنا في الفِراش، لا أستطيع صبرًا.

يجيبني بنفاد صبر.

- لا «شهاب»، كما اتفقنا، مقاليد الأمور بيدي لهذه الليلة، لا تتعجل.

أنهيتُ جملتي بنظرة مفعمة بالإغواء والوعود.

- حسنًا لهذه الليلة فقط!

قالها بصبر نافد.

– أعدك سيدي، فقط لهذه الليلة، هيا بنا لتناول العشاء ومن بعدها سأحكي لك ما قالته لي «تغريد» في الفِراش، قلتها غامزة.

قهقه بصوت عال:

– ربَّاه مَن منا قاتل للرومانسية الآن؟ هيا «ناي» لنتناول العشاء وأنا من سأحكي لك قصة ما قبل النوم.

قادني إلى طاولة العشاء وذراعه تعتقل خصري:

– لِنرَ يا وسيم من منا صاحب القصة الأجمل.

يضحك عاليًا مشيرًا بتحدٍّ:

– سنرى، الفِراش بيننا.

استمر المزاح وارتشاف الشراب وتبادل الأحاديث والقبلات طوال الليلة، حتى أدارت الخمر رأس «شهاب»، فحانت لحظتي أنا! سقط «شهاب» وبسقوطه ارتفعت أنا!

الفصل التاسع

مضت أربعة أيام منذ آخر حديث بيني وبين «شهاب»، لم أجِب اتصالاته، لم أبادله الرسائل، انعزلت عن العالم أجمع، عنه وعن أمي، عن «ناي» وعن كماني، رتبت أفكاري بتسلسل كي لا أضل طريقي في ظلمة أحزاني، رممت جدار روحي وأعدت طلائه بمبادئي، سلطت نور بصيرتي على أعماقي، وجدتني ملقاه ببئر الانكسار فانتشلت نفسي، نفسي التي أعرفها، لا التي حاول «شهاب» طمسها!

صالحت ما بين عقلي وقلبي، وكتبت معاهدة الصلح، بأن قررت وضع حد لنزعات «شهاب»، اليوم سيكون بيننا حديث نهايته قرار، قرار غير قابل للرجعة فيه أو المماطلة، اليوم تنتهي دوامة التعلق، اليوم تنتهي الحرب الباردة بيننا، منذ متى تعارض الحب مع المبادئ والأخلاق؟! منذ متى كان العهر مرادفًا للاحتياج؟! منذ متى كان التنازل ثمنًا للبقاء؟! أفضل أن أبقى وحيدة على أن ارتقي سلم التنازلات.

أمسكت بهاتفي واتصلت.

- كيف حالك «شهاب»؟

«تغريد»! لمَ لا تردين على اتصالاتي؟ ألم تصلك رسائلي! -

هل يمكنك أن تأتي لمنزلي الآن، أريد التحدث معك..-

- عن أي شيء «تغريد»؟ لم أنتِ غامضة هكذا؟

- «شهاب» رجاء، لن أخذ من وقتك الكثير، أريد التحدث إليك ولا يمكنني فعل هذا على الهاتف.

- حسنًا سآتي إليك بعد ساعة.

- إلى اللقاء.

أغلقت الهاتف وأنا أدعو الله ألا يخيب «شهاب» ظني، ألا يطفئ بصيص الأمل الذي أراه فيه، ألا يكتب بيده شهادة الوفاة لحب يُحتضر على فِراش الوداع!

❋❋❋

أغلقت هاتفي مع «تغريد» وكلماتها ما زالت تتردد بعقلي، أعلم ما يدور برأسها، «تغريد» تريد المواجهة، وأنا غير مستعد لها، لم أقرر مصيري معها بعد.

- من؟ «تغريد» أليس كذلك؟ رددت «ناي» بتساؤل.

نهضتُ من الفراش مُبتعدًا:

- لِمَ تسألين؟! أعتقد أنك سمعتِ المحادثة.

أجبت وأنا أهم بارتداء ملابسي.

نهضت بدورها واتجهتْ إليّ:

- ماذا تريد؟!

- تريد التحدث إليّ، هل من أسئلة أخرى؟ هل انتهى التحقيق معي؟!

قلتها ممتعضًا.

– ليس تحقيقًا «شهاب»، فقط أردت الاطمئنان عليك.

قالتها وهي ترفع كتفيها علامة اللامبالاة.

– والآن هل ارتاح بالك؟! أراك لاحقًا «ناي».

أنهيت جملتي وأنا أحمل أوراقي ومتعلقاتي متجهًا إلى باب البيت.

– «شهاب»! لا تتأخر عليّ، أنتظرك الليلة.

قالتها بشغف واضح.

– «ريناي» كنت معك لأربعة أيام كاملة، سأذهب لأرى «تغريد» ومن ثم أعود إلى منزلي لأكمل عملي، بقي لدي بعض التعديلات للكونشرتو الخاص بك ويجب عليّ إنهاؤها قبل بدء تمرينات الفرقة.

قلت وأنا أفتح باب المنزل.

أتت ورائي مهرولة:

– يمكنك إنهاؤها هنا، أعتقد أني كنت خير داعمة لك على مدار الأيام الماضية.

قالتها بهمس قاتل.

ربّاه كم هي مغرية ومغوية، كساحرة تُلقي عليك تعاويذها فلا تستطيع الفِكاك منها:

– سأفكر بالأمر، أراك لاحقًا، قلتها وأنا أغلق الباب ورائي.

حينما هبطت من البناية اتجهت إلى سيارتي وعقلي مشغول بـ«تغريد»، ليس بطلبها للحضور، وإنما بطريقة حديثها، تبدو وكأنها اتخذت قرارًا مسبقًا، وتريد مني ردًّا قاطعًا، تبدو كمن كان متعبدًا في

محراب الصمت ثم قرر أن يخوض نقاشًا للفصل! وبالرغم من أنَّ «تغريد» فتاة رقيقة ناعمة، إلا أني أخشاها حينما تتحدث بهذا الجمود، ترهبني حينما تشهر دروع القوة وتشحذ مبادءَها، أخشى ثورتها وهجومها الذي تنهار أمامه دفاعاتي الواهية، «تغريد» امرأة بقلب رجل، وأنا ما كرهت فيها إلا قلبها، لأنه لم يستطع إخضاع مبادئها، فتركني عالقًا معها.

ذهبت إلى منزلي، ومن ثم أخذت حمامًا سريعًا أهدئ به أفكاري المشتعلة، ارتديت ملابسي وتأنقت كعادتي، حاولت أن أشغل عقلي بمقطوعتي الموسيقية الجديدة، ربما اكتسبت اتقادًا من اشتعال أفكاري، أخذت مفاتيحي خارجًا من منزلي، استقللت سيارتي وانا أدندن نوتتي، لأكتشف أنها قد اكتسبت نغمًا جديدًا زادها اشتعالًا! يصبح القلق رائعًا حينما يدفعك للتميز، أليس كذلك؟!

توقفت بسيارتي أسفل بناية «تغريد»، أشعلت سيجارًا، أمتص أنفاسه بعمق، ثم زفرتها ببطء مكونًا من سحبها خططًا دفاعية، أنسج مشهدًا متكاملًا أخوض به الحرب الباردة بيني وبينها، أعزف فيه على أوتار مشاعرها وقلبها، أشعل نار حبها فيبعثر جمودها، أحيك من خيوط السيجار المشتعل ثياب العاشق المتيم، أبتسم لسخرية القدر، بالتأكيد لم يأتِ اسم «شهاب» الخياط من عدم!

قبّلتُ سيجارتي القُبلة الأخيرة ومن ثم ألقيتها ليكون مصيرها مكب النفايات، أنظر إليها مسحوقة ككثير من الفتيات اللائي مررن بحياتي! مهما اختلفت البدايات تظل النهايات واحدة، وهي الفِراق، ليبقى الفراق وسيلة لكسر الآخرين وأحيانًا وسيلة للاستقواء على مبادئهم!

أمام باب منزل «تغريد» أنتظر أن تفتح لي الباب.

- أهلًا «شهاب» تفضل.

قالتها «تغريد» داعية إياي للدخول وهي تهرب بعينيها بعيدًا عن عيني!

آه يا «تغريد» أرى رمادًا بعينيك يُخفي استعارًا!

ما إن دلفت للمنزل، حتى بادرتني والدتها مرحبة أهلًا بك «شهاب»، كيف حالك؟ وجهها يحمل قلقًا لا حدَّ له، عيناها تنظران إليّ بلوم:

- تفضل بُني، سأصنع لك قهوتك.

قالتها وهي تتجه إلى المطبخ.

ألتفتُ إلى «تغريد»:

- حسنًا «تغريد» أريد أن أفهم لِمَ لا تجيبين اتصالاتي؟ أريد أن أعرف ما بكِ؟

- اجلس رجاءً «شهاب» كي نستطيع التحدث، لن نتبادل الأحاديث ونحن واقفان هكذا.

اتخذتُ مقعدًا قائلًا:

- حسنًا «تغريد»، كلي آذان صاغية، ماذا لديكِ؟!

***

أنا «عايدة»، امرأة خمسينية، لدي عينان، واحدة تُدعى «حازم» والأخرى تدعي «تغريد»، ولداي وقرتا عيني، امتدادي وفخري في الحياة، توفي زوجي وترك لي ثروة هائلة، جعلت حياتي عامرة بالحب

والاحتواء، تلك الثروة لم تكن أموالًا، بل كانت ولديَّ، ثروتي التي إذا ما خيرت بينها وبين كنوز العالم، لاخترتها، هكذا هي الأم، تحمل أولادها برحمها وتسقيهم من دمائها وروحها، حتى تأتي بهم إلى الحياة، فتحملهم في فكرها وقلبها طيلة سنوات عمرها، وتُفني أيامها فداءً لهم حتى مماتها، توفي زوجي و«حازم» لم يتخطَ العاشرة بعد بينما كانت «تغريد» في الرابعة من العمر.

استطعت بعون الله أن أربيهما وأحسن تربيتهما بقدر ما وفقني ربي وبقدر ما ألهمتني مشاعر الأمومة، ربيتهما على أخلاق الدين والمبادئ المُستقاة منه، لم يرد الله دعواتي بأن يجعلهما قرة أعين لي ويجعلهم من الصالحين، الآن «حازم» مهندس يعمل بإحدى الشركات العالمية بدولة خليجية ومستقر هناك، و«تغريد» عازفة كمان مشهورة ومحبوبة، وتسألونني ما المعضلة؟!

أقول لكم إن معضلتي اسمها «شهاب»، رجل مكتمل الرجولة ظاهريًّا، وسامته تخطف الأبصار، فنان مشهور وموسيقار متألق، رمز من رموز الجيل، حلم لكثير من الفتيات، و«تغريد» فتاة كسائر الفتيات، تحلم بفارس الأحلام، ومن أفضل من «شهاب» العظيم حديث الساعة! للأسف لم يكن قلبها بنفس صلادة مبادئها وأخلاقها، ولأنها فتاة داخلها نقي، كان بديهيًّا أن تقع أسيرة شباكه، منذ متى كانت لا تُغري الشِّباك الضحية؟! تسألونني لماذا وافقتُ على الخِطبة؟!

بالنهاية أنا أمٌّ جل أملها بالحياة إسعاد أولادها، تحترق من أجلهم، لكنها تموت ألمًا لرؤية قلب أحدهم مُنفطرًا، و«تغريد» كانت

وكأنها تتنفس من رئته! كيف لي أن أقطع عنها حبل الحياة؟! كانت كزهرة شمس توجه وجهها أينما ذهب «شهاب»، كيف لي أن أحجب نورها؟! كيف لي أن أطفئ إحدى عينيّ؟! يعلم الله كم عاندت وكم رفضت وكم صرخت مخيرة إياها بيني وبينه، لكن مشاعر الأمومة تمكنت مني، فما كان مني إلا أن استسلمت ووافقت على الخِطبة.

وافقت ولسان قلبي يلهج بالدعاء:

(اللهم إن كان شرًّا فباعد بينه وبين ابنتي كما باعدت بين المشرق والمغرب)

لكن منذ أن عادت «تغريد» من الحفلة الأخيرة، وكأن شيئًا ما انطفأ بداخلها، وكأن حزنًا ما سحق روحها فما عاد الحب يجديها نفعًا! أشعر أن «شهاب» أقدم على فعل شيء غبي، وكم أتمنى له المزيد من الأخطاء والغباء أيضًا، فالأخطاء المتتالية هي الطريق المؤدي للهاوية، وكم أتمنى أن يبتعد «شهاب» عن ابنتي نهائيًّا! «شهاب» ليس شخصًا نقيًّا، أعلم أنه يرتدي ثوب التقاة أمامنا، هكذا أشعر وحدسي لا يخطئ أبدًا.

أليس هكذا حدس الأمهات؟!

الفصل العاشر

- حسنًا «تغريد»، كلي آذان صاغية، ماذا لديك؟!

أنظر إليه بخواء، أتوه بعينيه، يقتلني شوقي إليه، لكن الهوّة بيننا تؤرق مشاعري، هوّة باتت بعمق أحزاني وباتساع أحلامي معه! هوة نتجت من اختلافنا، أراه بفكر مختلف ويراني هو بعشق مختلف، والاختلاف أغلق طرق الوفاق بيننا، فكان لا بد لي من المواجهة! أخذت نفسًا عميقًا:

- اتصلت بك اليوم لمناقشة أمرنا، منذ آخر لقاء بيننا وحرب بداخلي تشتعل، منذ آخر لقاء ومبادئي تناطح مشاعري، أنا أتداعى من الداخل ولا يمكنني الاستمرار هكذا، أحترق ولا يبدو لك سوى الرماد، أنا لست بخير «شهاب»، يقتلني جدالي المستمر معك، أشعر أني بمتاهة لا أجد لها مخرجًا، أخبرني «شهاب» هل تحبني؟! هل تحترق مثلما أحترق أنا؟! هل كانت اتصالاتك حبًّا أم كانت فراغًا! هل كانت رسائلك من قلب عاشق أم من تعقل المشاعر؟! أخبرني «شهاب» إلى متى ستظل الطرق بيننا تتعارض؟! إلى متى سأظل شاهرة مبادئي أمام نزعاتك؟! إلى متى سأبتلع الكلمات حفاظًا عليك؟! وإلى متى سأنثر الثلج بداخلي لأطفئ اشتعالي!

ينظر إليّ مستنكرًا كلماتي:

– ألا تعتقدين أنكِ تعطين للأمور أكبر من حجمها؟! كل هذه الثورة من أجل ماذا؟ ألأني أحبك! ألأني طلبت منك أن تقاسميني لحظات السعادة! أن تكوني بجانبي تخليدًا لتلك الليلة؟! لا أعتقد أنه طلب شائن أو رخيص بين اثنين متحابيْن ومخطوبيْن أيضًا والجميع يعلم ذلك.

– ربَّاه ألم تعِ شيئًا مما قلته؟! أعن الرخص تتحدث؟! بينما تستنكر أنت الرخص، أجدك ترتضيه لي وتقنعني به، بل تجده شيئًا عاديًّا، هل هذا فعل المحب بالأحبة؟

– وهل وجودك معي رخصٌ «تغريد»؟ هل التمتع ببعضنا البعض يُعدُّ رخصًا! من أين أتتك تلك الأفكار؟ فأنا أراه حبًّا، كيف تفكرين بالله عليك؟! هذا ما يحدث بين العاشقين، لستِ صغيرة «تغريد» لتدركي حقيقة الأشياء.

– لمْ أسألك يومًا أن تتغير، بل أحببتك بما أنت عليه، أحببتك بكل ما امتلكت من مشاعر.

أكملتُ وأنا أنظر إلى عينيه مستفهمة:

– ستظل بيننا الهوّة قائمة، أليس كذلك؟! لم تترك لي حلولًا أخرى.

قلتُها وجيش من الدموع محتشد بعيني.

– «تغريد»، أكره الجدال، كفاك جدالًا، ما الذي عليّ أن أفعله لأشعركِ بالأمان! ألا يكفي أني معك؟! ثقي بأني لن أتمادى في احتياجي لك مرة أخرى.

- لا أفضل ترك الأمور للاحتمالات، ما عاد لديّ قوة لتحمل الأزمات، ما عاد لديّ روحٌ أنثرها هباءً في كل خلاف، استسلمت وخارت قواي، تعب القلب وتداعى العقل من الإنهاك، حدد موقفك الآن «شهاب»، إما بقاء وإما فِراق.

ما الذي تعنيه بكلماتك؟ أتهددينني؟!

- لا «شهاب»، أنا لا أهددك، أنا أخيرك، أن تبقى معي فنتزوج أو تفارقني وكلٌّ منا يحمل الحب بقلبه للآخر، لكن أن نمضي هكذا، بهذه الطريقة نقتل حبنا وهذا ما لا أريده.

- «تغريد»، تعلمين أني أحبك ولا أستطيع أن أفارقك، لنتزوج إن كان هذا سيشعرُك بالراحة والأمان، إن كان هذا هو ما سيُنهي الخلاف بيننا، هل أنت مستعدة للزواج بعد شهرين من الآن؟

صمتُّ برهة وأنا أنظر إليه غير مصدقة:

- ماذا تعني؟! هل هذا استسلام للحب أم إجبار العقل؟!

- «تغريد» بالله عليك، أقول لك نتزوج وأنت تقابلينني بتلك الأسئلة التي بلا معنى!

اقترب مني مكمّلًا:

- هل يجب عليّ أن أركع طالبًا موافقتك كي تصدقينني! حسنًا سأفعلها.

قالها وهو يخِرُّ على إحدى ركبتيه.

عندها أتت أمي من المطبخ تحمل صينية القهوة فهالها المشهد:

– ماذا تفعل؟!

قالتها وهي تكاد تقذف صينية القهوة بوجهه!

تحركتُ لأقف بينهما:

– أمي لقد كان «شهاب» يطلب مني الزواج بطريقة رومانسية.

قلتُها ضاحكة بينما استقام «شهاب» واقفًا، ما زلت لا أصدق، لقد اتفقنا أنا و«شهاب» على الزواج بعد شهرين من الآن، ما رأيك أمي؟

علت ملامح وجهها الصدمة وإذا بها تصرخ:

– ماذا؟! ماذا قررتما؟

– قررنا الزواج سيدتي، بالتأكيد لن نظل خطيبين مدى الحياة، لم أتخيل أنَّ الخبر سيصدمك هكذا، بالتأكيد من فرط سعادتك بالخبر.

قالها «شهاب» ببرود وهو يتجه ناحية الباب، ثم التفت الي مكمّلًا:

– حسنًا «تغريد» أراك غدًا، لدينا تدريبات لحفل كبير، أخبرك التفاصيل لاحقًا.

قالها «شهاب» خارجًا من المنزل.

– أماه ما بك؟! لمَ هذا الانفعال حبيبتي؟! لا بد أنَّ «شهاب» شعر بالخيبة من ردة فعلك هذه، هيا أمي لا تحزني هكذا، لن أبتعد عنك كثيرًا ستأتين للعيش معي، لن أفارقك أبدًا.

– كيف لكِ أن تتخذي قرارك وحدك؟! كيف؟! أليس لي أي اعتبار لديك؟! كان لا بد أن تستشيريني في قرار مصيري كهذا.

محتضنة أمي:

- حبيبتي، أنا و«شهاب» مخطوبان منذ مدة ليست بالقليلة، والزواج هو النهاية الطبيعية لخطبتنا، أمي أعلم أنك لا ترتاحين لـ«شهاب»، لكن رجاء اسعدي، على الأقل من أجلي، من أجل سعادتي أنا ابنتك الوحيدة.

قلتها مقبلة.

- لم تتركي لي شيئًا لأفعله، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، دعينا نخبر أخاكِ أولًا ليرتب أموره كي يكون موجودًا معنا يوم الزفاف.

- افعلي ما يتوجب عليك أمي، ربّاااه لا أصدق، أشعر بسعادة لا حدود لها، الحمد لله الذي لم يخيب ظني بـ«شهاب»، سأتركك الآن لأخبر «ناي» بالخبر السعيد، بالتأكيد لن تصدق مثلك أمي.

قلتها وأنا أركض إلى غرفتي لأتصل بـ«ناي».

❊❊❊

أقبع وحيدة ببيتي، أمسك بهاتفي والعجز يلفني، لا أستطيع الاتصال بـ«شهاب» وما عدت أطيق الانتظار، أنتظر مكالمته التي لم تأتي بعد، أحرق الكأس تلو الآخر في انتظار مقيت، يحرق ساعات من عمر أقصر من أن يضيع هباء الانتظار أو الأحزان، لم يكن الصبر يومًا أحد فضائلي، عقلي كقائد حرب لا يكف عن وضع الخطط، ككاتب يضع سيناريو محكم كي يصيغ الفكرة بأفضل الطرق، أنتظر وأنتظر ولا مجيب لانتظاري سوى الصمت.

هاتف المنزل يرن، لا بدَّ أنها «تغريد»، أتمنى أن يكون الخبر الموعود، الفِراق! فراقها عن «شهاب»، كم أتمنى أن يُنهي القدر تلك المسألة دون تدخل مني، كم أتمنى ذلك رأفة بها، التقطه مُجيبة:

- مرحبًا.

- «ناي»! لدي خبر لن تصدقيه، ما زلت لا أصدق إلى الأن، أشعر أني امتلكت النجوم بيدي، خفيفة كفراشة أستطيع التحليق كيفما شئت، ليتك هنا «ناي»!

«تغريد»، ما بك؟

ناي جهزي نفسك، فلديك عرس ستحضرينه بعد شهرين من الآن، خمِّني من العروس! -

هنيئًا لك «تغريد»، مبارك حبيبتي، إذن فعلها «شهاب» أخيرًا، أتمنى لكما السعادة. -

- ما بكِ «ناي»! لا أشعر بأنك سعيدة من أجلي، أشعر باللامبالاة في كلماتك، هل اتفقتما أنتِ وأمي على إتعاسي اليوم؟! ألم يثبت لكما إلى الآن أنَّ «شهاب» إنسان رائع؟

- «تغريد» حبيبتي، تعلمين أني أحبك كثيرًا وسعادتك هي سعادتي، فقط الخبر فاجأني، لكنني سعيدة بالطبع، وفقكما الله، هنيئًا يا عروسنا الجميلة.

- لا أصدق «ناي»، أخيرًا أنا و«شهاب» سنكون معًا، لا أطيق صبرًا، «ناي» يجب أن تأتي اليّ لنتحدث في ترتيبات الزفاف، ونطلع على مجلات الموضة لنختار سويًّا فستان العرس، هيا «ناي» تعالي.

- اعذريني «تغريد» ليس اليوم حبيبتي، لنتقابل الغد ومن ثم أنا تحت أمرك، لكن دعيني أرتاح اليوم كي أستطيع مجاراتك الأيام المقبلة.

- حسنًا «ناي» أتركك اليوم فقط، أما عن الأيام القادمة ولمدة شهرين أنتِ معي لن تتركيني وحيدة، بالمناسبة لدينا تدريب غدًا أخبرني «شهاب» بذلك، بالتأكيد سيتصل بكِ لإخبارك، أراك غدًا حبيبتي، «ناي» أحبك لا كصديقة، بل كأخت لم تلدها أمي، اذكريني بدعائك وتمني لي السعادة.

- وأنا أيضًا أحبك «تغريد» وأتمنى لك كل السعادة.

أعدت سماعة الهاتف وبداخلي نيران لا تكفي مدن العالم لإخمادها، حسنًا «شهاب» أنت حتمًا لا تعرف مع من تلعب، لست أنا من تخسر، لم تكن الخسارة مرادفًا بحياتي يومًا، حسنًا دعنا نرى من منا سيضحك بالنهاية!

***

عدتُ إلى بيتي مشتاقًا للعمل، مُنتشيًا أشعر بالزهو، أريد أن انهي اللمسات الأخيرة للمقطوعات الموسيقية، تعلمون أن لدي عُرسًا أليس كذلك! رفعت غطاء البيانو، لمست مفاتيحه ومن ثم بدأت العزف، أشعر أن رأسي يناطح السماء، فتأليف الموسيقى يسبغ علي شيئًا من الألوهية، يجعلني أنظر للأشياء بعين الصغر، أسمو وأسمو حتى يُهيأ لي أني جالس بين النجوم، السماء ملكي والبشر من ضآلتهم أخشى أن تدهسهم قدمي! أراجع النوتات، واضبط النغمات، أنظر بعين الفخر إلى نفسي، أفكر بالزفاف المرتقب، ولا، لم ألعن نفسي، ولم أقتل نفسي عتابا وتوبيخًا عما فعلته، فكل شيء تم كما خطط له، ماذا؟!!

أتحسبونني ذاك الغر الساذج، الذي يجبر على الزواج لأن امرأة ما هددته بالرحيل؟! بربكم أنتم لم تروا مني شيئًا بعد، أنا لا أخسر، أنا أخسِر، فمن يفقدني هو الخاسر، من أتركه لا بد أن يلقى ببئر الانكسار، ليس أنا من تقول له فتاة تافهة الوداع! الوداع خلق لأمثالها، بعد أن يتم استهلاكها حد الملل، يجب أن تكون كلمتي هي النهاية، حسنًا «تغريد» اهنئي قليلًا بانتصارك الواهي، من قال إن الزواج قشة الأمان! خُلقت الحياة من تضاد وكما خلق الزواج خلق الطلاق، سأعلمك «تغريد» بالطريقة الأصعب، أنه لا فارق بين امرأة منحت نفسها باسم الزواج وبين امرأة منحت نفسها بلا قيد أو شرط، فكلتاهما منحت نفسها بدافع الرغبة!

الفصل الحادي عشر

أغلقت الهاتف وبداخلي نيران لا تكفي مدن العالم لإخمادها، أخذت حمامًا مُنعشًا يطفئ لهيب غضبي، دائمًا ما تعاند الرياح أشرعتي، فتأتي بما لا أشتهي وأرضى، ألا يمكن للقدر أن يكون بي أكثر رأفة؟! لا بأس لن أتحطم، فأنا امرأة اعتادت معاندة أقدارها بمنتهى الندّيّة، أقف تحت الماء المنهمر، لطالما كان رذاذ الماء قادرًا على تخفيف توتري، تسقط قطراته فتتساقط معها الهموم عن كاهلي، دائمًا كانت أفضل خططي تأتي تحت انهمار الماء، أنهيت حمامي ومن بعدها عزفت على الناي، علّي انزع عن أصابعي التشنج، أنظم أفكاري على نغماته، رنين هاتفي الشخصي يتعالى، بالتأكيد «شهاب».

– مرحبا «ناي»

– أهلًا بالعريس.

– إذن قامت العروس بإخبارك.

– نعم، هذا ما حدث، أتمنى لكما حياة موفقة.

– «ناي» تعلمين أنَّ الأمر ليس كما يبدو.

– أعلم مَن أنت «شهاب»، لذا أتفهمك جيدًا.

– لطالما كان تعقلكِ أحد أسباب انجذابي إليكِ، حسنًا لدينا تدريب غدًا، في الحادية عشر صباحًا.

- إلى اللقاء إذن.

- سأشتاق إليكِ كثيرًا.

أغلقتُ الهاتف وكلي ثقة أن زواج «شهاب» بـ«تغريد» ليس حبًّا، إنما رغبة في امتلاكها، لكن لا، على «شهاب» أن يدرك أنه ليس ابن الحياة المدلل، يأمر فتجيب له الحياة، لطالما أحببت تخريب الخطط، هذا بالفعل ممتعٌ.

***

اليوم أول تدريب للفرقة منذ آخر حفل، كانت إجازة رائعة ومفيدة للجسد والروح، لكن ولّت أيام الراحة وأتت أيام العمل الشاق، كلها دقائق وتأتي «تغريد» لتعلن الخبر المنشود، وسرعان ما ينتقل الخبر إلى الصحافة ليصبح حدث الموسم، ثم يتم إضافة خبر الحفل الضخم الذي سيقام احتفاءً بالوفد السياسي، ليكون الخبران هما عنوان الأشهر المقبلة، كم أنا بارع في اختيار التوقيتات! كل شيء تم دراسته بعناية، تبدو الحياة كسيمفونية لا تتوقف عن إبهاري.

- أرى أنَّ العريس يبدو سعيدًا، لم أكن أعلم أنّ قرار الزواج مبهجٌ لهذه الدرجة!

ألتفت لأجد «ناي» واقفة أمام الباب:

- مرحبًا «ناي» تفضلي وأغلقي الباب رجاء.

- أخشى أن تأتي العروس وترانا معًا، فتصيبها الغيرة!

قالتها متهكمة.

اتجهتُ إليها ساحبًا إياها من خصرها بذراع واحدة وأنا أغلق الباب بيدي الأخرى:

- وأنتِ ألا تغارين؟!

قالت ناظرة في عمق عينيّ:

- لمَ علي أن أغار؟! وممن؟! لم أكن امرأة تخشى الفقد أو تحتاج برهانًا للحب.

اقتربت منها:

- لكنني أحتاج لبرهان على حبك.

تعلّقتْ بعنقي قائلة:

- الحب لا يعني الاحتجاز، الحب أن أمنحك مطلق الحرية لتختار، لتأتيني بالنهاية وأنت واثق من قرارك، أن أفتح لك الباب على مصراعيه وكلي ثقة بأنك ستعود، أتعلم لماذا؟! لأني واثقة بأني امرأة لا تتكرر.

أقبّلها بشغف لا مثيل له، أعشق المرأة الواثقة بنفسها كثيرًا، في غمرة الشغف يُفتح الباب فجأة:

- «شهاب» أريد توقيعك على...!!!!

كان ذلك «رامز» مدير أعمالي.

- حسنًا «ناي» أراكِ في التمرين بعد دقائق.

قلتها وأنا أحاول مداراة ما كان يحدث.

- بالتأكيد أستاذ «شهاب».

قالتها «ناي» مغادرة تحت نظرات «رامز» المشمئزة.

بعد أن غادرت «ناي»، التفت «رامز» إليّ:

- ما الذي رأيته للتوِّ؟! «شهاب» آسف على التدخل، لكن «تغريد» لا تستحق هذا منك.

- «رامز»! لا تتدخل بأمور لا تعنيك، ما الذي كنت تريده؟

بامتعاض أجاب:

- أريدك أن توقع لي بعض الأوراق، إن كان هذا بإمكانك.

- اتركها الآن وأنا سأوقعها لاحقًا.

ترك «رامز» الأوراق بسخط:

- كما يحلو لك.

قالها مغادرًا.

تبًّا لك «رامز»، تبًّا لك ولتطفلك، حتى متى سأتحملك أيها البغيض؟!

❋❋❋

استيقظتُ ومشاعر السعادة تغمرني، اليوم أول أيام العد التنازلي للزفاف، كسلم موسيقي أرتقي درجاته وأنا أتمايل على نغماته لأصل إلى الجنة، جنتي مع «شهاب»، أمامي الكثير من الاستعدادات، عليَّ أن أخبر أعضاء الفرقة لكي يستعد كلٌّ منهم، عليَّ أن أتحدث مع «شهاب» عن الترتيبات اللازمة، نهضتُ بكل همة أتجهز للذهاب إلى التدريب، كطائر مغرِّد يعدُّ الدقائق كي يلتحق بسربه فيغرد معهم لحن السعادة والحب.

عندما وصلت للمسرح، ذهبت إلى غرفة «شهاب»، قابلت في الطريق «رامز» مدير أعماله ومنسق الحفلات، بادرته مرحبة:

- صباح الخير أستاذ «رامز»، كيف حالك؟

- صباح الخير «تغريد».

قالها بنبرة غاضبة ثم أكمل طريقه!

طرقتُ باب «شهاب» ثم دلفتُ إلى الحجرة:

- صباح الخير حبيبي، كيف حالك اليوم؟

- صباح الخير «تغريد»، قالها «شهاب» باقتضاب.

- ما بك «شهاب»؟ لِمَ يبدو الجميع غاضبين اليوم؟ بالأول الأستاذ «رامز» ثم أنت.

- لست غاضبًا «تغريد» وإنما متعجلٌ لبدء التدريب، فكما تعلمين لدينا حفلٌ ضخم، أما عن «رامز» فلا تشغلي بالك، فهو لديه مشاكل نفسية لا تحصى!!

قالها غامزًا

ضحكتُ قائلة:

- «شهاب» لا تقل هذا، إنه فقط يأخذ الأمور بجدية.

- أها! تدافعين عنه أمامي؟، أنا حبيبك وزوجك قريبًا؟

قالها مقتربًا بشكل مغوٍ.

بتلعثم قلت:

- لمْ أقصد هذا بالطبع، هيا بنا لنعلن الخبر للجميع بالخارج.

- تحت أمرك سيدتي.

قالها وهو ينحني أمامي بحركة مسرحية ومن ثم اصطحبني خارج غرفته لنعلن الخبر.

***

أنا «رامز كارم»، مدير أعمال ناجح ومنسق حفلات بارع، هكذا يُقال عني في الصحف والمحافل، على خُلق ومتدين، أحسبني كذلك، أبلغ من العمر ثلاثين عامًا، لكن منذ متى كان العمر مقياسًا للخبرة أو التجارب؟! العمر سُلم نرتقيه لنقترب من النهاية، بدأتُ من الصِّفر، فلم أكن من بيت ميسور الحال أو من عائلة عريقة، ك»تغريد» و«شهاب»، لكن الله قاطعٌ واصل، يأخذ منك شيئًا ليعطيك أضعافه.

كنا عائلة تمتلك الكثير من الرضا والمثابرة، لم يبخل أبي يومًا علينا بوقته أو بتشجيعه، كان وما زال ركيزة حياتنا ونقطة العودة إذا ضاعت هُويتنا بفوضى الحياة، بفضل الله ثم بفضل أبي وإيمانه بقدراتي، وصلتُ لما أنا عليه، «رامز كارم» الشاب الثلاثيني رجل الكلمة والذي يثق الجميع بتعهداته، مثار فخر العائلات في بحثهم عن أزواج لكريماتهن، إلا واحدة لم ترَ أيا من ذلك! فقد أعماها سحر «شهاب» عن رؤية باقي البشر، صنعت منه إلهًا تتعبد إليه، وتقضي أيامها في الابتهال إليه والطواف حوله.

«تغريد» جرح رجولتي، انتصار «شهاب» الأوحد علي! لا تعتقدوا أني أكرهها، فأنا أتمنى لها السعادة حقًّا وإن كانت مع «شهاب»! فقط يسوئني ما أرى، أتميّز من الغيظ كلما رأيت الغدر في عين «شهاب»،

وأنا مكبل لا أستطيع حمايتها منه ولا أستطيع الابتعاد! كيف لي أن أحميها من قلبها ومشاعرها؟! كيف لي أن أكسِر مرآة الحب الحمقاء؟!

وكيف لي أن أبتعد عنها وهي أنفاس الحياة! هكذا كانت قسمة الله، لا يسعني الاعتراض، بل رضيت أن أتعذب بها ومعها، لولاها لكنت فارقت «شهاب» منذ زمن، ماذا عليّ أن أفعل؟ فللقلب أحكام واجبة النفاذ! لكن ما رأيته اليوم فاق لديّ كل احتمال، لم يستوعب عقلي ما رأته عيناي، «شهاب» و«ريناي»! جناحا «تغريد»! الصديقة والحبيب.

كيف ومتى وأين وكل الأسئلة الحائرة دون إجابة شافية، لمَ كل هذه القسوة؟! ما الذي فعلته «تغريد» ليغتالاها بتلك البشاعة؟! ظلت مشاعري تتأرجح بين عدم التصديق والغضب، كمركب صغير بين موج هائج لا يعرف سبيلًا للخلاص.

لم أكد أغادر حجرة «شهاب» حتى وجدتها أمامي، «تغريد»، ملاكي الذي يحيا بين أشباه البشر، روح طاهرة لا تعرف الدنس، ولأنَّ خُلقها كان راقيًا، لم تدرك أنّ الدناءة من طبع بعض البشر، «تغريد» التي اعتُقل عقلها من قبل قلبها، فلم تدرِ بأي شرك وطِئت قدماها، كم هي بريئة وتستحق التوبيخ! كيف لها أن تحب «شهاب» ولا ترى فيه الهلاك؟!

رددت تحيتها باقتضاب واتجهت لركن قصي، محاولًا تمالك أعصابي، أن أطفئ غضبي منها ومن «شهاب» ومن الحقيرة «ريناي»، ومني! ما الذي يمنعني من أن أبوح لها بما رأيت، ماذا لديّ لأخسره؟! لكن هل ستصدقني؟

تلك هي المعضلة، منتهى السخرية، ففي الوقت الذي يشهد فيه الجميع بصدقي، أجد نفسي أتساءل إن كانت «تغريد» ستصدقني أم لا! يروق للقدر أحيانًا أن يضعنا أمام مرآة أنفسنا، مكبل أنا بالحب لا أريد منه فكاكًا، بينما عين الحبيب لا تراني، نعم أنا أعشق وأحترق بالعشق، بينما مّن أحب غارق بحب إنسان آخر، مجبر أنا على الصمت لا محالة.

لم تمضِ دقائق حتى وجدتُ «تغريد» بصحبة «شهاب» وللمفارقة! هما يعلنان عن ميعاد زفافهما! أليس هذا نوع من السخرية أيضًا؟! تنهال التبريكات عليهما، وأنهال بسخطي على مفارقات القدر، خسارة «تغريد» خسارة أن تكوني بالنهاية لشخص مثل «شهاب».

- ألن تبارك لي أستاذ «رامز»؟!

تسألني بعين تلمع كألف نجمة وابتسامة تقطر سعادة وبهجة، تبتسم هي وأهوي أنا ببئر اليأس!

قلت بثقل:

- أتمنى أن يبارك الله اختيارك «تغريد»، بالتوفيق.

أنهيت كلامي مبتعدًا، كي لا تلحظ انفعالي وحنقي، ها هو ملاك يسقط بكامل إرادته بين براثن الشر لتغتال براءته، ها هو حلمي الكبير يتداعى ولا أملك سوى الركض مبتعدًا عنه!

الفصل الثاني عشر

أنظر إلى المسرحية الهزلية، ما بين ليلى والذئب! لم ألقِ بالذنب على الذئب يومًا. ولمَ ألومه؟! طالما أنَّ ليلي يعجبها الوضع! فلم تكن ليلي قاصرًا أو معدومة الفهم، بل كانت عاشقة والعشق ذنب، يكبّل العقول ويُعمي البصيرة، وكي تصدقوا كلماتي، انظروا إلى ليلي كم تبدو سعيدة وكأنها تتعجل الوقوع في الشرك!

أما الذئب فيبدو باردًا كلوح ثلج، يُخفي أنيابه الطويلة، ويُغمض عينيه كي لا ترى فيهما نظرات الغدر، أحبك أيها الذئب!! كم تبدو وسيمًا حينما تستطيل أنيابك، وتلمع عيناك بخبث العالم وسَعة الحيلة!!

من بعيد أرى «رامز» مغادرًا، خطواته غاضبة، بالتأكيد يشكو قلة الحيلة، فهو لا يملك لليلى نصحًا ولا سبيلًا، معذور فالصدامات تتوالى عليه، أولًا رآني مع «شهاب»، ثم خبر الزفاف، أعلم أنَّ «رامز» يعشق «تغريد»، فنظرات العاشق فاضحة وإن كانت من وراء حجاب، كم أنت غبي «رامز»، تحرق أيام عمرك سُدىً، ألا تعلم أنك لن تملك ما ليس لك بالأساس، ولن يحبك قلبٌ لم يرَك، و«تغريد» لم تشعر بك يومًا لتراك!

– حسنًا حسنًا شكرًا لكم جميعًا، الآن لنبدأ التدريب، ليتخذ كل منكم موضعه.

كان ذلك «شهاب»، كم أعشق تسلطه وسيطرته على الجميع، أعشقك أيها القائد، ليس عشق الفتيات التافهات ك»تغريد»، بل عشق الأقوياء، الذين لا يخشون الموت ولا يعرفون معنى للخسارة، ولا سبيل أمامهم سوى النصر!

أمسك بالناي وأبدأ العزف، أنظر في عُمق عينيّ «شهاب»، نتبادل النظرات وكأننا نتراقص، رقصات الحب والحرب على صيحات النغمات، تتسارع الموسيقى فتصير أنغام الناي أكثر لوعة، والنظرات بيننا مندلعة، تتعانق بشغف ولهفة، تتوقف الموسيقى وينتهي الرقص، ندرك أنَّ كلانا يعاني من نفس النقص، فلا مهزوم بيننا ولا منتصر!

***

كان يومًا مُهلكًا للجسد، لكن روحي كانت تسبح في فضاء السعادة، وبالرغم من فترة التدريب التي امتدت لساعات، إلا أني لم ألحظ طولها، صدق من قال إن العمر يُحسب بعدد أيام السعادة، لا بعدد ما فقدت من أعوام، اصطحبت «ريناي» معي بعد أن انتهينا من التدريبات، بدأنا رحلات الشراء التي لن تتوقف خلال الأيام القادمة، الأشياء كثيرة ومُبهرة، أشعر باللهفة لاقتنائها جميعًا، لكن لهفتي ليوم الزفاف أكبر، أخاف أن تتباطأ الأيام، أود لو تمر سريعًا كي أبقى مع «شهاب» مدى الحياة، هكذا تكتمل دائرتي، حلقتي الرائعة، كم هو جميل أن تكون محاطًا بالأحباب، حينها ما الذي سينقصك؟!

عندما عدت إلي منزلي وجدت أمي تحادث أخي على الهاتف، تخبره بالتفاصيل، انتهزت الفرصة وتسللت لغرفتي، وضعت الأغراض، استبدلت ملابسي بمنامة النوم، فرّشت أسناني ومن ثم ذهبت إلى فِراشي.

- «تغريد»، هل أنتِ مستيقظة؟!

كانت تلك أمي واقفة عند باب غرفتي.

تظاهرتُ بالنوم ولم أجب، فأنا أعلم ما تود الحديث عنه، لكن لا طاقة لي بنقاش خاصة بعد عناء اليوم، لا أريد لشيء أن يشوِّه سعادتي، فهي تصعب عليَّ الأيام بأفكارها وشكوكها، آسفة حقًّا لكن أريد بعضًا من السلام.

تحركتْ أمي مغلقة الباب خلفها حينما أجابها الصمت، عذرًا أمي سامحيني، أعلم رأيك جيدًا في «شهاب» لكنها حياتي أنا، وقلبي لم يدق إلا له!

***

أعدُّ الفطور وفكري منشغل، منذ متى كانت «تغريد» فتاة حمقاء؟ تستجيب لدقات قلبها على حساب عقلها؟، أتمنى أن أكون مخطئة فيما يتعلق بـ«شهاب»، قلبي يتملكه الخوف والقلق، لا أعلم لمَ لا يتغير هذا الشعور، لقد حاولتُ كثيرًا أن أتقبل «شهاب»، لكنَّ شيئًا ما بداخلي يقتل تقبلي، لم يبق أمامي إلا الدعاء لك يا ابنتي، ويبقى الدعاء طوق النجاة الأخير للغرقى، وضعت الأطباق على الطاولة، ثم اتجهت إلى غرفة «تغريد».

- تغريد» هل استيقظتِ؟

قلتُها طارقة الباب.

- نعم أمي، ثانية واحدة وأنتهي.

- أنتظرك على مائدة الطعام.

- آتية أمي.

جلستُ إلى طاولة الطعام أنتظر «تغريد»، أريد أن أتحدث، بداخلي كلمات تتسارع للانطلاق.

- صباح الخير حبيبتي، كيف حالك اليوم؟

قالتها مُقبلة إيايَّ.

- أنا بخير «تغريد» وأنتِ؟

- في أحسن حال أمي، حاليًا أحيا أسعد أيامي.

«تغريد» ابنتي، راجعي نفسك، خذي وقتك، لا داعي للتعجل. -

- أمي لقد اتخذتُ قراري وانتهينا، حقًّا لا أريد سماع شكوى أو شكوك، لا داعي لكل هذا الفزع، أنا سأتزوج لا سأنتحر.

قالت كلمتها ناهضة وأردفت:

- الحمد لله لقد شبعت، سأذهب الآن إلى «ناي»، سأشتري بعض الأشياء التي تنقصني.

قالتها وهي تجمع حاجياتها وهي تهم بالخروج من المنزل، تاركة بداخلي يأسًا بعمق المحيطات.

***

منذ قررتُ الزواج بـ«تغريد» لم أرَ «ناي»، اشتقتُ إليها كثيرًا، تدريبات الفرقة مستمرة على قدم وساق، أقضي معظم اليوم في الإعادة ووضع اللمسات، أستهلك الكثير من طاقتي في التركيز، وأحتاج في نهاية اليوم إلى عناق حار يبدد برودة العمل، أحتاج إلى حِضن أفرغ

به قلقي وأرقي وشهوتي، أحتاج إلى ليلة مع نايي، «ريناي» الساحرة ذات النظرات المغرية، أي سحر تملكين يا «ناي» لأشتاقك هكذا؟ نعم أشتاقها، لكن دون زواج، فأنا إنسان لا يجد الزواج شيئًا ممتعًا، والجميل في الأمر أننا نتفق على هذا المبدأ!

أمسكتُ بهاتفي واتصلت بها.

- بطلي الوسيم يتصل بي! يا لحظي السعيد!

- اشتقت إليك كثيرًا.

- مَن يرَ أفعالك لا يصدق كلماتك!

- ما رأيك أن نقضي الليلة معًا؟، أريدك أن ترقصي بين يديّ.

بضحكة ناعمة:

- اشتقتَ لرقصي فقط؟!

- لا، اشتقتُ لعناقك، لجسدك، لتلاحمنا على فِراش واحد، لكل شيء «ناي».

- لا أعلم «شهاب»، فمنذ أن حُدد موعد الزفاف و«تغريد» أعلنت عليَّ حالة الطوارئ، تأتي في أي وقت إلى منزلي دون موعد، وربما تجدك عندي في إحدى غاراتها على بيتي وهذا لا يليق بالعريس، أليس كذلك؟!

- أحتاجكِ «ناي»، ما رأيك أن تأتي إلى بيتي؟! تعلمين أن «تغريد» لا تأتي إليه مطلقًا، هكذا نكون بمنأى عنها وعن العالم أجمع ولا يبقى سوانا.

– سيكون بيت الزوجية السعيد، يجب عليك أن تحترمه أكثر من ذلك!

لولا أني أعلمك جيدًا «ناي»، لقلت إنك تتألمين لزواجي!!–

– قلت لك سابقًا، أنا أثق بنفسي كثيرًا، أنا امرأة لا تعرف الخسارة أو الهزيمة، أعلم أنّ «تغريد» مجرد غيمة ستنقشع بزواجك منها، وستأتي إليَّ في النهاية.

– وها أنا أطلبكِ في النهاية، لا تتأخري، أنتظرك «ناي».

أغلقت الهاتف وبداخلي مشاعر لا يمكنني وصفها أو وضعها في قالب واحد، مشاعر هائجة متوترة، مشاعر تشتاق لـ«ريناي»، لا أعلم متى أصبحتُ معلّقًا بها هكذا، كيف تسربت إليّ من بين مسامي دون أن انتبه! لا بد أني فقدت مهارتي.

الجزء الثالث عشر

ارقصْ معي يا ظلي الحزين، فكم أنت بارع بالرقص، خذ بيدي ولفني بدواماتك كي لا أرى بروحي نقصًا، راقصني يا ظلي واحتضنِّي، فكل حبيب مودع، وكل رائع يذوي ولا يبقى لي سواك أنت!

أنهيتُ المكالمة مع «شهاب» وبردٌ وسلامٌ يسيطران على قلبي، «شهاب» يشتاق!، «شهاب» يخطو تجاهي!، «شهاب» يمسك بحبال التعلق!، والتعلق أمرٌ قاتل، وسيلة للاستقواء، ووسيلة لنيل المآرب، أن تتعلق يعني أن تفقدَ براعتك في الاتزان على حبال الصبر، أن تصنع منها مشانقَ تلتفُّ حول عنقك، فتخنق قلبك وتزهق روحك، أن تتعلق تصبح طرفًا ضعيفًا وكم تمنيتُ ذلك لـــ«شهاب».

من الآن فصاعدًا، سأخفف جرعات الحبِّ، فالرجال كالأطفال يُفسدهم الدلال وتحقيق الرغبات، على «شهاب» أن يدرك، أننا في الحب سواء، أنَّ الحب بيننا كمباراة شطرنج، كل منا يمتلك بيادق قادرة على أن تحصد له النصر، علينا أن نتفق في الحب على معاهدة سلام، وإلا عليه أن يواجه الخسارة.

حسنًا سأتصل بـــ«تغريد» لأقضيَ معها اليوم، سبب قوي للغياب أليس كذلك؟! لِنرَ رِدة فعلك «شهاب»!

أمسكتُ هاتفي واتصلت:

- مرحبًا «تغريد»، أين أنت؟

- «ناي» أنا في الطريق إليك، سأقضي اليوم بأكمله معكِ إن لم يكن لديك أيُّ ارتباط آخر.

- يسعدني ذلك حبيبتي، لكن ماذا عن والدتك؟!

- أنا هاربة من وجوي معها «ناي»، سأشرح لكِ حينما أراكِ.

- حسنًا أنتظرك، إلى اللقاء.

أغلقتُ الهاتف وأنا أتمايل فرحًا، كم هي رائعة الحياة حينما تعاملني كابنتها المدللة، تحنو عليَّ وتخدم خططي!!

حسنًا «شهاب» لِنرَ ما في جعبتك!

تمضي الأيام وأنا أحترق، «تغريد» قريبًا ستغرد في قفص «شهاب» الذهبي، ستكون له حقًّا حصريًّا، «تغريد» تنساب من بين يديَّ، لكن منذ متى كانت «تغريد» ملك يديّ! لتودع أحلامك يا «رامز»، لتكف عن الأوهام، فلا خاسر هنا سواك، لا تزهق روحك فداءً لمن لا يشعر، حتى وإن حاربت العالم من أجلها، «تغريد» لن تستقبلك بأكاليل مشاعرها، مَن يعلم ربما جعلتك محرقة جراحها وأحزانها؟، قل وداعًا لــ«تغريد»، لا تحارب بمعركة خاسرة.

رنين الهاتف يبدد سحب أفكاري، اتجهتُ إليه بروحٍ مثقلة بالخيبة.

- مرحبًا.

- مرحبًا «رامز» أين أنت؟

– أنا بالخدمة «شهاب»، تفضل.

– كنت أؤكد عليك نشر خبر الزفاف مع خبر حفل الوفد السياسي، أريد أن يكون الإعلان على نطاق موسع، أريد أن يكون الحدث الأكبر على الإطلاق لهذا العام.

– لك ما تريد «شهاب»، اطمئن، لن تخلو صحيفة أو مجلة أو قناة من خبري الزفاف والحفل، كن واثقًا من ذلك.

– حسنًا «رامز» وافني بآخر التطورات.

– «شهاب» مهلًا، أريد التحدث معك بأمر ما.

– عن ماذا؟

– لقد قررت أن يكون الحفل الموسيقي هو نهاية عملي المشرِّف معك، سأقوم بتأسيس عملي الخاص، لذا أرجو منك الموافقة.

– لا يمكننا مناقشة أمر كهذا على الهاتف، سنتحدث بالأمر حينما أراك، إلى اللقاء.

أنهيتُ المكالمة مع «شهاب» وأنا أكاد اختنق، ما عاد لديَّ مكان بينهما ولا قدرة على مواصلة الصبر، ربما الابتعاد هو الحلُّ!

***

– ما بك «تغريد»؟ ما الذي يحدث بينك وبين والدتك؟!

– لا أعلم «ناي»، منذ خبر الزفاف وأنا أشعر بها كمن تتلظى في النار، لا أدري لمَ هي متوترة هكذا، وتريدني أن أراجع قرار الزفاف! أعلم أنها لا تتقبل «شهاب»، لكن عليها أن تتقبله من أجلي.

– تكلمي معها «تغريد»، استمعي إليها ربما كانت على حق، تبقى بالنهاية والدتك وهي أكثر الناس حرصًا على سعادتك.

– حتى أنتِ «ناي» تقولين هذا، ما الذي فعله «شهاب» لكما لتكرهاه هكذا!

– لا أكرهه «تغريد»، بالطبع لدي تحفظات تجاهه، لكن بالنهاية هو قرارك، فقط تحدثي إلى والدتك.

– سأفعل «ناي» سأفعل، والآن ارتدِ ملابسك، دعينا نتمشَ قليلًا أشعر بالاختناق حقًّا.

– حسنًا «تغريد» سأبدل ثيابي، دقائق وانتهي.

قالتها «ناي» متجهة إلى غرفة نومها.

– سأعدُّ لنا كوبين من القهوة ريثما تتجهزين.

قلتها متوجهة إلى المطبخ.

أمسكتُ هاتفي وكونت رقم «شهاب»:

– مرحبًا حبيبي، كيف حالك؟

– مرحبًا «تغريد»، أنا بخير وأنت؟

– بخير حال «شهاب»، وما يسعدني أكثر أنَّ الأيام تمضي سريعًا، أنا الآن مع «ناي»، سنمضي اليوم معًا، إلا اذا أردت أن تختطفني منها، لن يكون لديَّ أدنى مانع.

– لديَّ بعض الأمور التي يجب إنهاؤها، لمَ لا تأتين إلى المنزل، لتتأكدي أن لا شيء ينقصه؟ واصطحبي معك «ناي» كي تكوني بمأمن مني.

- «شهاب» لا تتحدث بهذه المرارة فأنا أثق بك كثيرًا، لا داعي لكلماتك هذه.

- حقًّا تثقين بي؟! كيف؟! وأنت لا تأتين إلى منزلي إلا مع والدتك لوضع حاجياتك، وتذهبين معها غير آبهة باحتراقي، لا تعطيننا فرصة للبقاء وحدنا ولو قليلًا، لا تتفوهي بكلمات تناقض أفعالك، لا تتشدقي بكلمات تحتاج منك لإثبات.

- ما بك «شهاب»؟ عن أي إثبات تتكلم؟!

- عن إثبات لصدق كلماتك، لمَ لا تأتين إليَّ وحدك، كنوع من البرهان على ذلك؟!

لم أجبه إلا بالصمت.

- لا عليكِ «تغريد»، أنا أعقب على كلماتك ليس إلا، فقط أعلمي أن منزلي سيكون منزلك أيضًا، ويمكنك القدوم بأي وقت تشائين، إلى اللقاء.

أنهيتُ المكالمة وكلي مضطرب، ألا يكفي ما أناله من أمي ليأتي «شهاب» ويزيد من ثقل روحي، ما بك «شهاب»؟، ما بكم جميعًا؟!

الجزء الرابع عشر

أسير بجانب «ناي»، أنظر إلى واجهات المحلات وعيناي لا تريان شيئًا، صور وألوان متعاقبة، غمامة ملونة كشريط مكرر، لا شيء منها يعلق بروحي أو بعقلي، ما زالت كلمات «شهاب» تطرق جدار روحي، ينتابني القلق والكدر، لا أريد أن أعود لنفس الدائرة مرة أخرى، دائرة التوجس والحذر، يا الله مرِّر هذه الأيام دون أن يتمرر طعمُ الفرح بقلبي.

– ما بك «تغريد»؟! منذ أن خرجنا من المنزل وأنت صامتة، هل هناك خطب ما؟!

– لا شيء، فقط بضع كلمات من «شهاب» جعلتني أشعر بحيرة شديدة، لا تهتمي.

– «شهاب»! هل هاتفك؟ متى؟!

تنهدتُ:

– بل هاتفته أنا حينما كنت تتجهزين، وليتني ما فعلت.

– لِمَ؟! ما الذي قاله ليتعكر صفوك هكذا؟!

كعادته يتهمني بأني لا أثق به، أنا أثق به كثيرًا «ناي»، لكن هل عليَّ إثبات ذلك؟ –

– مهلًا «تغريد»، أي إثبات هذا؟!

- إثبات حبي له، أخبرني باصطحابك معي حتى أكون بمأمن منه، أخبرته بأني أثق به، فطالبني بإثبات ذلك، لقد ضايقتني كلماته كثيرًا.

- لن أعلق «تغريد»، فالكلمات المحتشدة الآن بفمي ستؤذي سمعك قبل روحك، دعينا ندخل هذا المحل، فأنا حقًا أريد أن أنسى ما قلتِه للتوِّ، فـ«شهاب» لن يتغير كما لن تتغيري أنت، ليتك ترين ما نراه نحن.

- وما الذي ترينه «ناي»؟

- أرى كم يبتزك!، كم يساومك!، أرى كم الحروب التي يشعلها بداخلك، «تغريد»، أعتذر عما سأقوله، لكن «شهاب» لا يليق بك، اخسريه قبل أن تخسري نفسك.

- «شهاب» يحبني «ناي»، أنتِ تتحاملين عليه، رجاء لننهِ هذا الحديث الذي يثير أعصابي.

أنهيت كلماتي دالفة إلى المحل في محاولة لتبديد سُحب كلماتها الخانقة لقلبي والمذكية لقلق عقلي.

***

مرَّ أسبوعان وأنا أواري اختبائي بعذر «تغريد»، أربعة عشر يومًا مرّا و«شهاب» يتصل بكل يوم منها، ينتظرني كل ليلة ولا آتيه، الأمس تحدثنا، كان صوته يضج بالشهوة وبنفاذ الصبر، مسكين يا «شهاب»، تريد كل شيء وبالنهاية سأحصل عليك، قليلًا من الصبر «ناي»، قليلًا من الصبر وينتهي كل شيء كما أريد.

جرس المنزل يدق، ربما كانت «تغريد»، تحركتُ تجاه باب المنزل لأرى مَن الطارق.

- أخيرًا وحدك!

- «شهاب» ما الذي أتى بك؟ ربما تأتي «تغريد» في أي وقت.

- اشتقت إليكِ «ناي».

لم يكد يُنهي جملته حتى طوقتني ذراعاه، لم أدرِ بنفسي إلا وهو يحملني متجهًا إلى غرفة نومي.

قلت صارخة:

- توقف «شهاب»، توقف.

يضعني على الفِراش وما زالت ذراعاه تعتقلاني، أقاومه صارخة بقوة:

- توقف «شهاب» أرجوك.

- ماذا؟، ماذا «ناي»؟ لِمَ أتوقف؟! أنا مشتاق وأريدك!

- لا «شهاب»، ليس بعد الآن، لم يعد هذا ممكنًا.

ينظر إليَّ بعدم فهم، وكأنَّ عقله فقد قدرته على تحليل كلماتي:

- ما الذي يعنيه هذا؟

- «شهاب» افهمني أنت ستتزوج، ستؤسس حياة جديدة مع غيري، وأنا صامتة أراقبك تفعل هذا أمام عيني، أحترق وسحب احتراقي تخنق صدري، تلوث أنفاسي، تقتلني ولا أجرؤ على طلب المساعدة منك، لأني أعلم أنك تريد هذا الزواج بشدة، أنت ستتقدم بحياتك ولا ألومك، فقط دعني أتعود غيابك.

- أي غياب هذا «ناي»! لقد كنتُ صريحًا معكِ بكل شيء، كان هناك اتفاق بيننا: لا حب، لا غيرة، أن نبقى معًا دون الحاجة لقيد، ما الذي حدث «ناي»، هل أعجبتكِ فكرةُ الزواج؟! لستِ بحاجة لورقة بائسة كي تحصلي عليَّ أو على أي شخص آخر، فأنتِ امرأة لا يقيدها شيء، أليس كذلك؟!

- نعم أنا كذلك «شهاب»، أكره القيود، لكن ما حدث أني أخطأت وأحببتك، ارتكبت ذنبًا لا يُغتفر بحق نفسي، لذا أحاول أن أجنب قلبي المزيد من العذاب، عذاب رؤيتك قريب حدَّ البِعاد، وبعيد حد الألم، وبالنهاية لن أحصل منك إلا على بضع ساعات، ربما مع مرور الوقت تختصرها لدقائق لا تسقي ظمئي إليك! لذا اتركني «شهاب» أداوي نفسي على طريقتي، اتركني وعُد لـ«تغريد»، عُد لحياتك الحافلة واتركني ألعق جراحي وحدي.

يقترب مني مُعانقًا:

- هذا لن يحدث «ناي»، لن أبتعد عنك أؤكد لك، أنت بداخلي «ناي»، من أين جاءتكِ هذه الأفكار؟! هذا الزواج لا يعني شيئًا، إنه فقط وسيلة للحصول على «تغريد» ليس إلا، تعلمين هذا جيدًا «ناي»، كوني معي اشتقتُ إليك كثيرًا.

- لا «شهاب»، أريد إثباتًا، إثباتًا لكلماتك، أمامك طريقان، إمّا فِراق وإمّا ارتباط.

- أرى أنكِ بدأتِ بعزف نغمة «تغريد»!

- لن يكون زواجنا للإشهار، حاليًا، لكن سيتغير هذا بالطبع، ما إن تحصل على «تغريد».

«شهاب» افهمني، زواج آخر لن يضرك، لكن سيضمنك لي ويضمن بقائي معك، خذ وقتك قبل أن تتخذ قرارك، فقط اعلم أنه أيًّا كان قرارك فلن يكون هناك رجعة فيه، لذا فكر جيدًا، وحتى تتخذ قرارك يُفضَّل إلا نلتقي ثانية.

استقام واقفًا:

– حسنًا «ناي»، كما تشائين!

قالها خارجًا من الغرفة دون أن ينظر إليَّ.

ثوانٍ مضت بعدها سمعت صوت باب المنزل يُغلق.

– مسكين يا فتاي الوسيم، إذا أردت قطف الثمار عليك أن تتحمل وخز الأشواك، لا تثق كثيرًا بفاكهة محرمة، فما إن تتذوقها حتى تنكشف لك سوءاتك، حسنًا «شهاب» احترق بنار رغباتك يا ابن الحياة المدلل.

الجزء الخامس عشر

خرجتُ من بيت «ناي» والحنق يملأني، أي أحمق أنا لأجعل امرأة تتحكم بي! تبًّا لكِ «ناي»، هناك ألف امرأة غيرك، ألف بكر تنتظر إشارتي، مَن تظنين نفسك؟! كيف لكِ أن تتحديني، سأعلمك «ناي» كيف تتعاملين معي، يبدو أنكِ نسيتِ من هو «شهاب» العظيم، ستدركين مع الوقت أني رجل لا يمكن مساومتة أو مقايضتة، ستدركين أني فوق القيود والحدود، أهنئ «ناي» فلن ترينَ وجهي بعد اليوم.

أخرجت هاتفي واتصلت بـ«تغريد»

– مرحبًا «تغريد»، كيف حالُكِ أميرتي؟

– بخير حال حبيبي وأنت؟

– كيف لي ألا أكون بخير وأنا اسمع صوتك؟! ما هي خططك لليوم؟

– لا شيء سوى الخروج مع «ناي» ومتابعة تجهيزات الزفاف.

– أشعر أنَّ تجهيزات العرس تأخذك مني «تغريد»، ما يزيد عن الشهر ونحن لا نلتقي إلا من خلال تدريبات الحفل، ما رأيك أن نترك تجهيزات العرس مؤقتًا ونقتنص بعض الأيام لنا، نخرج، نسهر، نتجول، ما رأيك؟

– سيكون هذا رائعًا «شهاب»، موافقة بالطبع.

- إذن تجهَّزي، سأمرُّ عليكِ بعد نصف ساعة، تغرييييد!

- نعم «شهاب»!

- اشتقتُ إليك كثيرًا.

- وأنا أيضًا حبيبي، اشتقتُ إليك وإلى تدليلك إياي.

- حسنًا أراكِ لاحقًا.

أغلقتُ الهاتف وابتسامة رضا ترتسم على شفتيَّ، بينما لسان حالي يردد:

- «ناي» أي حظ عاثر أوقعك معي؟، تريدين الوحدة والابتعاد؟، لكِ هذا!!، ثقي بأن أيامك القادمة ستكون موحشة للغاية!

***

مرَّ أسبوعان ولم يصلني من «شهاب» رد، نلتقي بالتدريبات فلا ينظر إليَّ، يدلل «تغريد»، يتضاحك معها، يستحوذ عليها ليل نهار، أسلوب قديم في إثارة الغيرة، غيرة فتاة تافهة بالطبع، لا غيرتي أنا، فأنا امرأة تعرف مدى قوتها ومدى ثباتها جيدًا، امرأة تعلم أنها غير قابلة للنسيان، أسبوعان وأنا وحدي أقيِّم الأمور، حتى أعرف مكمن الضعف، فـ«شهاب» رجل قوي، ولكنني أقوى منه، وإن لم يكن لي فلن يكن لغيري.

أمسكتُ هاتفي وكوّنت رقمه:

- مرحبًا «شهاب»

- مرحبًا «ناي»، هل هناك خطب ما؟!

- أنتظر منك ردًا، هل فكرت؟

– أو لم يكن ابتعادي ردًّا!

– حسنًا «شهاب»، ردُّك أكثر من وافٍ، إلى اللقاء.

– ما الذي تريدينه بالضبط «ناي»؟ ما الذي ستجنيه من كل هذا؟ فأنا رجل لم يُخلق للزواج وأنتِ تعلمين ذلك.

– لكنك ستتزوج «تغريد»، أليس كذلك؟!

– أعاشرك قبل زواجي منها، وسأعاشرك بعدها، هذا إن رغبتِ بالطبع، وسأعاشر كل امرأة تروق لي، لا سلطة لامرأة أو لأحد عليّ، افهمي، بزواج أو بدونه أبقى أنا صاحب القرار وحدي.

– إذن أوقف هذا الزواج واحصل على «تغريد» دونه، حينها تتساوى الكِفَّة.

– للأسف عزيزتي، هناك امرأة تصلح كواجهة اجتماعية، وهناك امرأة للعبث، عن نفسي أفضل كثيرًا امرأة العبث، لكن هذا هو الواقع، إما أن ترتضيه أو لكِ حرية الابتعاد.

– وأنا لن أفني شبابي في الخفاء، سواء معك أو مع أي رجل آخر، وبالنهاية تأكد إن لم أحصل عليك، لن تحصل «تغريد» عليك، إلى اللقاء «شهاب».

أغلقتُ الهاتف ونار مستعرة تحرق أحشائي، تريدها حربًا «شهاب»، أنا لها، لكنك لا تعلم أن حرق المدن هواية لديّ، وأنّ خرق السفن وسيلتي لكي لا يبقى أحد سواي حيًّا، لا تعلم «شهاب» أيَّ عدو ناديته للحرب.

❋ ❋ ❋

أقف أمام مرآتي وأتزين، لم يتبقَ سوى ثلاثة أيام على موعد الزفاف، ثلاثة أيام ما بين «تغريد رائد»، و«تغريد الخياط»، ثلاثة أيام وتكلل قصة عشقنا بالزواج، لنبدأ رحلتنا معًا، متعانقان إلى ما لا نهاية، ثلاثة أيام وأتوسد صدره وألتحف بذراعيه، تغفو عيناي وتفيق على رؤية وجهه، أي سعادة تعادل سعادتي؟! وما يسعدني أكثر، أنَّ «شهاب» قد عاد لطبيعته المُحبة، لقد عاد إليّ خاطفًا قلبي دون رجعة، ليتَ الأيام تمرُّ سريعًا كي يجمعنا مكان واحد ويبتعد عنا العالم أجمع.

«تغريد»، طائرة «حازم» ستصل اليوم الساعة الواحدة ظهرًا، لا تنسي أن تكوني باستقباله –

– لن أنسى أمي، سأذهب أنا و«شهاب» لنستقبله، لا تقلقي.

– حسنًا، أخبري «شهاب» بأنه سيتناول الغداء معنا. «تغريد»، هل أنت واثقة من قرارك؟

.تمام الثقة، أإلى الآن تتساءلين! لقد انتهينا أمي، ادعي لي بالسعادة –

– أدعو لك كثيرًا يا ابنتي، أدعو الله أن يختار لك الأفضل، وأن يقف معك في خيارك.

– تمام أمي، لقد انتهيت، هل تريدين شيئًا آخر؟! سأذهب الآن، فـ«شهاب» ينتظرني بالأسفل، إلى اللقاء، أنهيت جملتي مقبلة إياها، ثم أمسكت حقيبتي واتجهت إلى باب المنزل.

– «تغريد» لا تنسي أن تتصلي بـ«ناي» أيضًا، لتنضم إلينا.

- حسنًا أمي، أستودعكِ الله.

أغلقت والدتها الباب وراءها وهي تردد:

- أستودعكِ الله يا ابنتي، أستودعه قلبك وسعادتك وشبابك، أستودعه أحلامك وأمانيكِ، فلا يقتلها «شهاب» أو يودي بها إلى مقبرة الأحزان.

الجزء السادس عشر

ثلاثة أيام وتنتهي الحرب، ثلاثة أيام وينهار الحلم، ثلاثة أيام عجاف ولا غيوم للقدر تنذر بهطول بعض الحظ، ثلاثة أيام وتحصد «تغريد» النصر، يا للسخرية! لأول مرة أجد ندًّا قويًّا ك»شهاب»، لا يسقط بين براثن إغوائي، أعلم أنه يرغبني بنفس قدر رغبتي به، لكنه رجل خبر الكثير فعلم كيف يتحكم بغرائزه وشهواته، لم يكن اسم «شهاب» العظيم ليأتي من فراغ!

وها أنا قابعة ببيتي أعد الخطة لكي أهدم المعبد، فوق أحلامهم، الوقت يمضي والقدر يلاعبني لعبته المفضلة، لعبة الكراسي الموسيقية، حسنًا لطالما كنت امرأة تعاند أقدارها، وأعلم متى تتوقف النغمات الكونية.

يرتفع رنين هاتفي فألتقطه:

- مرحبًا «ناي»، اشتقت إليكِ.

- أهلًا «تغريد»، وأنا أيضًا اشتقت إليكِ، كيف حالك؟

- بأحسن حال والحمد لله، أخيرًا سيتحقق الحلم، لم يتبقَ إلا القليل لموعد الزفاف.

- نعم، فقط ثلاثة أيام، أتمنى لك السعادة.

- شكرًا «ناي»، ستكونين معي غدًا وبعد غد، أليس كذلك؟

- بالتأكيد «تغريد»، كيف لي أن أفوّت هذا؟!

- اعلمي بأنكِ ستقيمين معي خلال اليومين القادمين، آه، نسيتُ أن أخبرك، أنّ أمّ «تغريد» تدعوكِ لتناول الغداء معنا اليوم، وهذا أمرٌ غير قابل للرفض.

- «تغريد» لا يمكنني حقًّا، دعيني أنهي أموري المتعلقة كي أتفرغ إليك كليا.

- أمي ستحزن كثيرًا «ناي».

- يجب عليها ألا تفعل، لأنني سأكون معكما بدءًا من الغد.

- حسنًا أنتظرك إلى اللقاء.

أغلقت الهاتف وشعوري بالهزيمة يتضاعف، كم هو مؤلم أن تُهزم دون أن تجد القدرة على الانزواء لتلعق جراحك وحيدًا!!

لكني أبدًا لن أكون الخاسرة الوحيدة!

***

- حمدًا لله على سلامتك بني، اشتقت إليك كثيرًا، ربَّاه لقد خسِرتَ الكثير من الوزن.

- أنا أيضًا اشتقت إليك أمي، ولا خسارة لديَّ سوى الأيام التي تمضي دون وجودكما معي، كيف حالك، وكيف حال «تغريد» حبيبتي؟

«تغريد» كما ترى، السعادة تُسكر عقلها، أما أنا فلست بخير «حازم»، بقلبي خوف لا يهدأ، ثمة شيء يقبض روحي، ويزهق مشاعر الراحة بقلبي، ليتك تتحدث مع «تغريد»، افعل شيئًا رجاء.

– أمي عن أي شيء أتحدث؟! «تغريد» فتاة عاقلة، و«شهاب» شاب رائع وناجح، لم أرَ منه ما يعيب، دعي الخوف جانبًا أمي واسعدي بأنها ستحقق حلمها بالزواج ممن تحب.

– ليتني أستطيع فعل هذا!، حدسي يخبرني أنَّ هناك خطبًا ما وحدسي لا يخطئ أبدًا.

– أمي هل هذه غيرة أم خوف من الوحدة؟ لا تقلقي ستأتين للعيش معي لن أتركك وحدك.

قالها وهو يميل مقبلًا إياها.

– لا هذا ولا ذاك يا «حازم»، أقول لك إني لا أرتاح لهذه الزيجة، لمَ لا تصدقني؟!

– أصدقك أمي، لكن هذا خيار «تغريد» وعلينا احترامه ومساندته أيضًا، ادعي الله أن يخلف ظنونك ويمنحها السعادة التي تستحقها.

– ربنا وتقبل دعاء، حسنًا بني سأتركك الآن لترتاح، لا بدَّ وأنك مرهقٌ، تصبح على خير.

– تصبحين على راحة بال أمي، رجاء دعي القلق جانبًا وفكري فقط أن ابنتك سترتدي فستانها الأبيض، وقريبًا إن شاء الله ستكونين جدَّة، وعندها لن تتذكري أيًّا منا!

قالها وهو يحتضنها.

– أتمنى لكما السعادة وألا يخذلكما شيءٌ في العالم، شكرًا لك بُنيّ، لطالما كنت صديقي وناصحي الأمين، أراح الله قلبك وأسعدك.

قالتها وهي تفتح باب الغرفة خارجة، بينما قلبها يردد: (لا باب لي سوى بابك يا الله، ما طرقت بابك إلا وقد أرضيتني، وها أنا أطرق بابك كعادتي، فاحفظ ابنتي وجنبها الأحزان).

***

أشعر بخوف قاتل، مضى الوقت ولم يتبقَ سوى ساعات، هل حقًّا سأتزوج؟! سؤال يهزُّ عرش ثقتي ويقلق ثوابت حريتي، هل حقًّا أريد المُضي في هذا؟! هل الحصول على «تغريد» يستحق هذه المجازفة؟! أسئلة... أسئلة... والأجوبة فاترة، غير كافية، أعصابي تحترق، وابتعاد «ناي» يفقدني توازني.

لا أعلم متى أصبحت خط تماثلي، ذاك الخط الذي تقف عنده مشاعري على حد سواء، فلا يطغى أحدها على الآخر، متى أصبحتِ تسكنيني يا «ناي»؟! كيف غفلتُ عن تفهم اختلافكِ؟!عن إدراك انفرادكِ؟! كم أنتِ امرأة عصيَّة على الفهم أو النسيان، تبًّا لكِ «ناي»!

***

سياسة النفس الطويل، تقترب فأبتعد،تبتعد فأقترب، شدٌّ وجذب، شدٌّ وجذب، تنساب الموسيقى كطبول حرب، نتراقص حول نيران الحب، كفراشتين حول ضياء من وهم، نتلاحم، نتلاصق، نصنع معًا خيالًا راقصًا، تتوقف الموسيقي وينتهي الرقص، دون أن ينتصر أحدنا أو يقع في الأسر، نتوقف ونتباعد، نلتقط أنفاس الخيبة ويتصبب منا اليأس، نفترق وكلانا يحمل بروحه كسرًا، كسرًا يدفعنا لمعاودة الكرة بالغد، ربما فقد أحدنا قدرته على الصبر!

جرس المنزل يرتفع، أتجه إليه فاتحة، أرى «شهاب» أمامي، أنظر إليه غير مصدقة، مكتمل الرجولة وجذاب، نظراته تضج بالرغبة والاشتياق، ألجمت المفاجأة لساني، لوهلة ظننته تجسّد من خيالي!

- ألن تقولي مرحبًا؟!

أنهى جملته وإحدى ذراعيه تعتصر خصري دالفًا إلى المنزل، أغلق الباب خلفه ومن ثم انضمت ذراعه الأخرى لتؤكد اعتقال جذعي.

- ما الذي تفعله هنا «شهاب»؟!

قلتُها محاولة فك حصار شغفه حول مشاعري.

- اشتقت إليكِ «ناي» حدَّ الألم، أريدك بشدة، أريدك الآن!

لم يكد يُنهي جملته حتى ترجم كلماته لأفعال تكتسح مشاعري، وتنهار أمامها صلابتي، أقاومه بقوة واهية، جسدي يئن بالاشتياق، ينتهي صراعنا، وينطفئ العالم حولنا فتبتلعنا سكرةُ الحُب.

الفصل السابع عشر

اشتقت إليها كثيرًا وكأنَّ ابتعادنا مرَّ عليه سنوات لا أيام، حاولت إسدال ستائر النُّكران على مشاعري وعزتها بستائر اللامبالاة، لكن ذلك لم يمنع تسلل ضوء الحنين إلى قلبي، جسدي كخريطة صمّاء و«ناي» مفتاحه وهويته، جسدي يشتعل ولا يطفئه إلا جسدها، مشاعري متضاربة، متصارعة، أخاف أن تنتهي اللحظات، فتسرقنا غياهب الواقع، عازف أنا و«ناي» معزوفتي التي لا أريد لها انتهاء.

بعد بضع ساعات، استيقظت وغلالة بيضاء تلفُّ عقلي، انظر حولي لأستوعب أين أنا، أجد «ناي» بين ذراعي، ملتصقة بي كطفل هارب من أشباحه، كم تبدو هشة! كم تبدو مختلفة! كيف اجتمعت الأحاجي بروحك يا «ناي»؟!

أزيح عن وجهها خصلة، تتملكني الدهشة من رؤية هذه الطفلة، لطالما اعتقدت أنّ الوداعة لا تليق بها، فهي امرأة شرسة، لا تعرف الاستكانة، سواء في الحرب أو الحب، ليت الزمن يتوقف هكذا، فلا واقع يفرقنا!

تفتح عينيها وتبتسم لي:

- مرحبًا يا وسيم، أهذا أنت أم ما زلتُ أحلم؟!

تباغتني نظراتها، تدك حصوني، أنا «شهاب» الذي مرَّ بساحاته الكثير والكثير من النساء، كيف للحب أن يطرق بابي! ومع مَن؟! مع «ناي»!

نهضت من جانبها باحثًا عن ملابسي، أردت أن أواري ضعفي أمامها، فبادرتها قائلًا:

– الآن سينتهي الحلم «ناي»، كانت ليلة الأمس هدية وداع، شيء ممتع أليس كذلك؟!

تستقيم جالسة، تتبدل ملامحها الوديعة، تحلُّ بعينيها نظرة شك وملامحها يطغى عليها عدم الفهم:

– هدية وداع؟! عن أي وداع تتحدث؟! لقد بدأنا للتو، لقد عُدت إليّ «شهاب»، لا شيء سيفرقنا بعد الآن، هذا ما فهمته ليلة أمس!

أشيح بوجهي بعيدًا عنها، أرتدي ملابسي:

– لقد كانت نزوة، شهوة، خوف، اشتياق، جِدي لها المسمى الذي يناسبك، لكن ما زال الواقع قائمًا، أنا سأتزوج «تغريد»، أما أنتِ فلكِ مطلق الحرية في الابتعاد أو البقاء معي.

تشتعل نظراتها، الجمود يسيطر على ملامحها وصوتها:

– إذن ليلة الأمس كانت لا شيء بالنسبة إليك! كانت مُسكِّنًا لآلامك، مُبددة لمخاوفك، ماذا عني «شهاب»؟! عن قلبي وروحي؟، أهما أيضًا لا شيء؟

– أنت من تأبين ارتضاء الواقع لا أنا.

– لأني لم أكن يومًا دُمية أحد، ولن أكون، حتى وإن كان أنت هذا الأحد.

– لقد خيرتك، والابتعاد كان خيارك، لذا كان عليَّ احترام رغبتك، متى تفهمين يا «ناي»، أني لا أستطيع التخلي عن أحد رهاناتي، و«تغريد» رهان يجب علي أن أكسِبه، مهما كلفني الأمر.

– تكسبها وتخسرني أنا؟، تنكر ما بيننا في سبيل هدف لا طائل منه؟، غرورك يمنعك عن التنازل ولو كان من أجل من تحب؟، اذهب «شهاب» وأحرز هدفك، هديتك غير مقبولة، فأنا أيضًا لن أتخلى عن أكبر رهاناتي وهو أنت.

– «ناي» لا تجعلي عنادك يقضي على تعقلك، أن نكون معًا بهذه الطريقة، هو أقصى ما يمكنني تقديمه لك، أنا وأنت وجهان لعملة واحدة، لا يطفو أحدنا على السطح إلا على حساب الآخر!

أنهيت ارتداء ملابسي واتجهت إلى الباب ثم توقفت مكملًا:

– لديك مهلة حتى انتهاء عطلة الزواج، فكّري جيدًا، أتمنى أن أراكِ حقًّا فور عودتي.

أنهيت جملتي خارجًا من المنزل، أغلقت الباب خلفي وكلي يصرخ ألمًا أن عُد إليها! أريد البقاء معها، متى أصبحتِ وقودًا للثورة على تعقلي! كيف أدمنتكِ «ناي»؟!

***

أتصل بـ«ناي» فلا مجيب، لديّ موعد مع صالون التجميل، أنهيتُ تجهيزات بيت الزوجية، فلم يعد أمامي سوى الاعتناء بنفسي حتى يوم غد، أين أنت يا «ناي»؟ لقد تأخرتِ.

– صباح الخير عروسنا الجميلة.

– صباح الخير «حازم».

– ما بك «تغريد» لمَ تبدين قلقة؟

– لا شيء، فقط أنتظر «ناي» لنذهب سويًّا إلى صالون التجميل، لديّ موعد وقد تأخرتُ بالفعل.

– هاتفيها إذن.

– لقد هاتفتها لكنها لا تجيب على مكالماتي، أخشى أن تتأخر أكثر من ذلك.

– يمكنني اصطحابك عِوضًا عنها.

أجيبه ضاحكة:

– «حازم» هذا صالون تجميل للسيدات، كيف لك أن تتواجد هناك؟.

– مَن قال أنني سأدلف معك للداخل؟، سأقلُّك إلى هناك، ثم من بعدها سانتظرك بأقرب مقهى ريثما تنتهين، أهذا جيد بالنسبة إليك؟!

– هذا مناسب جدًّا شكرًا لك.

– حسنًا سأرتدي ملابسي، لن أتأخر.

– حسنًا أنتظرك.

قلتها وأنا أمسك بهاتفي لأتصل بــ«ناي» مرة أخرى، نغمة قلق تتصاعد بقلبي، أخاف كثيرًا أن يصيبها مكروه لا قدّر الله.

❊❊❊

خرج «شهاب» من منزلي، تاركًا لي خذلانًا بحجم المحيطات ومرارة بعمقها، ذهب «شهاب» مصطحبًا آخر آمالي في تحقيق حلمي، ذهب «شهاب» ومعه روحي وبقايا تعقلي، ذهب «شهاب» مؤجّجًا

بداخلي نار الانتقام، نارًا لن أحترق بها وحدي! تتعالى نغمة هاتفي، أنظر لشاشته، إنها «تغريد» تبًّا لها، تبًّا لها، تلك الحقيرة التي تحصد دائمًا ما أتمناه أنا!

ألقيتُ بهاتفي جانبًا وبداخلي حقد العالم، «شهاب» لي مهما يكن، ترتسم على وجهي ابتسامةُ عجز وبعيني نظرة اشتياق وبقلبي آهة فقد، لقد حانت رقصة الوداع، رقصتي الأخيرة قبل هدم المعبد، معبد زواجهما وبقائهما معًا.

***

– اهدئي «تغريد»، ربما كانت نائمة أو في طريقها لمنزلنا ونسيت هاتفها، هناك آلاف الأسباب حبيبتي.

– لا أعلم «حازم»، «ناي» تعيش بمفردها، ولقد اتفقنا على أن تأتي لتقيم معي ابتداءً من اليوم، أخاف أن يصيبها مكروه لا قدّر الله.

– هوني على نفسك «تغريد»، «ناي» فتاة راشدة، سنذهب أولًا إلى صالون التجميل ومِن ثَمَّ سنمرُّ على بيتها لنطمئن عليها، فقط اهدئي.

– شكرًا لك «حازم»، آسفة وتَّرْتُك معي.

لمَ الشكر؟! مهمتي هي الوقوف دائمًا بجانبك، فأنتِ أختي وطفلتي، لا تخشي شيئًا طالما أنا على قيد الحياة.

– بارك الله بعمرك «حازم» وأدامك لي أنت وأمي.

تتصاعد نغمة الهاتف:

- إنها «ناي»!

- «ناي» أين أنت؟، قلقت عليك حد الموت!

- تغريد» آسفة لأني أثرت مخاوفك، لقد طرأ أمر عاجل واضطررت للسفر إلى عمي، لم أتمكن من تأجيل السفر للأسف، سامحيني لن أتمكن من الحضور.

- هل هناك خطب ما؟

- مجرد أمور عائلية عالقة، لا تكترثي.

- وماذا عن الزفاف؟! هل ستتمكنين من اللحاق به؟

- «تغريد»، لا تعلمين كم يقتلني ذلك، لا تعلمين كم تمنيت أن أراك بفستان العرس، لكن ما باليد حيلة!

- حسنًا «ناي» اهتمي بنفسك عزيزتي، أتمنى أن تُحل جميعُ أمورك على خير.

- «تغريد»، لا تكوني حانقة عليَّ، ما أردت يومًا أن يضيق بنا الدرب فلا يتسع لكلانا، لقد أحببتك حقًّا، لكنها ألاعيب القدر.

- كلامك غريب «ناي» ولا أفهمه.

- لا بأس «تغريد»، لا تكترثي لترهاتي.

- لا أفهمك حقًّا، كل ما أفهمه أني أحبك، عديني بأنك ستحاولين إنهاء أمورك سريعًا، كي تكوني معي فلا سعادة تكتمل إلا بوجودك.

- سأحاول ألا أفطر قلبك، سأحاول «تغريد»، سأذهب الآن، الوداع!

- اهتمي بنفسك «ناي»، إلى اللقاء.

- هل اطمأننتِ الآن؟

- نعم «حازم»، الحمد لله «ناي» بخير، لكن أشعر أنَّ أمورها ليست على ما يرام.

- ما الذي يعنيه هذا؟! هل تحتاج إلى مساعدة؟!

- لا أعلم «حازم» فكلماتها غامضة وكأنها تودعني!

- «تغريد» أعصابك متوترة كأيّ عروس، فلا تحمّلي الأمور أكثر من قدرها، دعك الآن من «ناي» ومن القلق عليها، وحاولي أن تستمتعي، فلن تصبحي عروسًا كل يوم، إنها مرة واحدة فقط وعليك أن تهنئي بها، حسنًا «تغريد» لقد وصلنا، اذهبي وأنا سأنتظرك بالمقهى المجاور ريثما تنتهين، إن احتجتِ لأي شيء فقط هاتفيني.

- شكرًا لك «حازم»، سأذهب الآن.

- «تغريد»!

- نعم «حازم»!

- لن أسألك هل أنت واثقة من هذه الخطوة أم لا، لن أسألك أي سؤال ينتهي بالاستفهام كعلامة، فقط تذكري أني دائمًا متواجد من أجلك، هيا اذهبي ودعي القلق جانبًا، لا أحد يستحق السعادة مثلك.

- حبيبي «حازم» بارك الله في عمرك وأمدّك بالخير كله، دمت لي خيرَ داعم، لقد اكتملت سعادتي بكلماتك هذه، إلى اللقاء.

قالتها مترجلة من السيارة.

أغلقتُ الهاتف مع «تغريد» وأنا مثقلة القلب والروح، أعِدُّ حقيبة سفر وأستعد لمغادرة المدينة، تاركة ورائي كل ما لحق بي من خذلان وألم، هاربة من الهزيمة التي ألحقها بي «شهاب»، لقد أحببته دون قصد مني، أخطأت وأحببته وأنا التي طالما وأدت الحب وواريته تحت ثرى طموحاتي، أحببته بكل ما بقي لديّ من مشاعر، لكنه قابل حبي بإجحاف ليس له مثيل، قتلني وتركني أتهاوى أرضًا، كم أنا خاوية نفدت مني الحيل، وما عاد سحري قادرًا على أسر «شهاب»، صرت أحترق وما عاد ماء الصبر يطفئ اشتعالي، ما عاد أمامي إلا ورقة واحدة ووحيدة مثلي، أتشبث بها لأواريَ ضعفي، كي لا أفقد نفسي وهويتي، أنا «ناي»، سأعزف بها ملحمتي، وسأعززها بصراخ قلوبهم وهي تحترق بناري، فأنا لن أحترق وحدي!

***

على باب القاعة أقف، ذراعي تعانق ذراع أخي، يخبرنا منظم الحفل أن ننتظر حتى يبدأ العزف، ألا يعلم أنَّ ضربات قلبي تطغى على أي صوت؟! ربَّاه لا أصدق نفسي، مرتبكة متوترة، سعيدة، خجولة، خائفة، وكأنَّ المشاعر بداخلي تناحر بعضها كي تطغى على وجهي فيسلط عليها الضوء! كفُّ أخي تربت على ذراعي تحاول تهدئتي، يميل على أذني:

- جمالك لا يضاهيه شيء هذه الليلة، جمال فينوس يُسحق أمام فتنتك، يخسأ القمر في وجودك! اخفض رأسي وأنظر أرضًا وجنتيَّ تحترقان خجلًا، تنجح كلماته في تهدئة ضربات قلبي، أتلفَّت حولي ناظرة

في أرجاء القاعة، أنبهر بعظمة الديكور، تتألق الأضواء كآلاف النجمات، ما زال منظم الحفل يتابع التجهيزات، وحدَّة التوتر بداخلي تزداد!

- حسنًا فلتبدأ الموسيقى الآن!

قالها منظِّم الحفل عبر جهاز الاتصال الداخلي ومن ثمّ التفت إلينا مخاطبًا:

- أستاذ «حازم» يمكنك اصطحاب العروس إلى داخل القاعة الآن، تعلم الخطوات جيدًا، تتقدم حتى وسط القاعة، فيأتي السيد «شهاب» ليأخذ منك العروس بمباركتك.

يتحرك أخي وأتحرك معه كدُمية بلا وزن، يتعالى صوت تصفيق الجمع، كاميرات تواجهني، تضيء أمام وجهي كمنارات تهدي سفن الخوف إلى شواطئ روحي، نتوجه نحو وسط القاعة حيث حلبة الرقص، يتقدم «شهاب» نحوي، ينظر إليّ بشغفٍ وحبٍّ.

أسمع أخي يخاطبه:

- حافظ عليها فهي أغلى ما لديّ، مبارك لكما.

تلتف ذراعا «شهاب» حول جذعي، بينما يهمس بأذني:

- أخيرًا اكتمل الحلم!

تنساب موسيقى ناعمة تحملني نغماتها عاليًا نحو الجنة، جنة عرضها صدر «شهاب» وحدودها ذراعاه، يردف مكملًا:

- لقد حلمت كثيرًا بهذه اللحظة، لحظة أن تكوني بين يديّ، لم يعد هناك حُجة لديك، لقد أصبحت ملكي.

الدماء تتصاعد إلى وجنتيّ، أبتسم بخجل، أجيبه في محاولة لإغاظته:

- لا ليس بعد، لم نوقع وثيقة الزواج بعد!

يضمني إليه بقوة:

- تمتعي بحريتك وتدللي، تمنعي كما تشائين، فما هي إلا دقائق وتكونين لي للأبد.

تنتهي الموسيقى ويبدأ مُنظم الحفل في الإعلان عن هدية خاصة للعروسين مقدمة من صديقة العروس المقربة، اعتذارًا منها على عدم الحضور.

تدمع عيناي:

- كم أحبك «ناي»، بالرغم من الغياب إلا أنَّ روحك حاضرة معي!

ترتسم على الشاشات مقدمة لفيديو يحوي صورًا تجمعني بـ«ناي»، أخت هي وصديقة غالية، تتسارع الصور، لكن اختفي أنا ويظهر عوضًا عني «شهاب»! ثانية، ثانية، ما الذي يفعلانه معًا؟! عيناي تحترقان، قلبي ينفطر، عقلي في حالة ذهول، هل هذا كابوس أم واقع بشع؟!!

أنظر إلى «شهاب» وجهه مكفهر، أسمعه يصرخ:

- أوقف هذا العرض فورًا!!

أنظر حولي، شاشات العرض تُعمي بصري، عريهما، انصهارهما، تلاحمهما كجسد واحد، عاجزة عن الصراخ أبحث عن أمي و أخي، تزداد العتمة من حولي، هوّة سوداء تبتلعني، أصرخ عاليًا لا أحد يسمعني:

- أمي.. أخي، لا تتركاني أهوي!

الفصل الثامن عشر

أنظر إلى «تغريد» وأودّع الحلم، حلمي بأن تكون لي يومًا! تسير بجوار أخيها كشمس تُطفئ ما حولها؛ كفتنة تخسأ الفتن بجانبها، السعادة تكلل ملامحها؛ الحبُّ يصدح بعينيها، مَن يرَها يجزم بأنها لا تسير، بل تطير شوقًا وفرحًا لاكتمال حلمها؛ ملامحها ملامح امرأة عاشقة على شفا خطوة من حبيبها، يتقدم «شهاب» منها، يلفُّ ذراعيه حولها وأتلظى أنا بنار الغيرة وأهوي ببئر القنوط والقهر! تنساب الموسيقى، فيبدآن رقصتهما، وقريبًا سيبدآن حياتهما؛ ولن يذكرني أيٌّ منهما!

لا أعرف ما الذي يُبقيني هنا؟ ما الذي يدفعني لجلد نفسي بسياط الألم جراء رؤيتهما معًا! لمَ لا أرحل تاركًا إياهم خلفي ولعناتي تلاحقهم؟! ينتهي الرقص وينتهي معه آخر رمق للصبر؛ أهِمُّ بالرحيل، فأسمع منظم الحفل يعلن عن هدية من صديقة العروس المقربة والتي لسبب ما لم تتمكن من الحضور!

«ناي» بالطبع، ومَن غيرها صديقة للعروس؟! لم يُثر غيابُها تعجبي؛ فقد توقعتُ عدم حضورها، فبالتأكيد «ناي» الآن تعضُّ أناملها غضبًا وحقدًا، فـ«تغريد» ستصبح زوجة «شهاب»؛ أما هي فستبقى معه كبائعة هوى؛ تحيا في الظل ولا تنال منه سوى البعض من الكلمات والكثير من الوهم؛ لم أبرح مكاني فقد استوقفني فضولي لمعرفة ما هي الهدية!

انتظرت لأشاهد العرض؛ صور متتالية ما بين «تغريد» و«ناي»، كم هي خبيثة، أفعى متلونة تلعب دور الصديقة المُحبة ببراعة؛ تجيد العزف على مشاعر «تغريد»، و«تغريد» كالعادة عيناها لا تبصران الحقيقة! تتوالى الصور، تختفي «تغريد» من الصور ويحلُّ مكانها «شهاب»؛ تنفرج عيناي على اتساعهما، أي بشاعة هذه؟! من أي حقارة عُجنا! أين ذهب حياء تلك الأفعى لتعرض حقارتها هكذا أمام العالم؟!

أنظر لـ«تغريد» فأجد وجهها يفقد دماءه، حتى صارت شبحًا يتهاوى؛ أهرول تجاهها في محاولة لإدراكها قبل أن تسقط أرضًا؛ أصل إليها فتتهاوى بين يدي! أضع إحدى ذراعيّ تحت ساقها وأحملها.

تصرخ والدتها بلوعة:

- «تغريد» ابنتي! ابنتي! كنت أعلم أنه حقير؛ كنت أعلم.

قالت كلماتها بانهيار.

يلتفت «شهاب» إليَّ صارخًا وما زالت الصدمة تلوّن مُحياه:

- اتركها لي!!

فيعاجله أخوها بلكمة في فكه تُسقط «شهاب» أرضًا، يصرخ فيه بغضب:

- أتجرؤ؟! تجرأ والمسها؛ وسأنهي حياتك بلحظة!

يلتفت إليّ:

- اتركها لي؛ دعني أحملها.

أصرخ به:

- لا وقت لدينا، دعنا نُخرجها من هنا سريعًا؛ رجاء اسبقني وأحضر سيارتك أمام مدخل القاعة، دعنا نذهب بها إلى المشفى، فالوقت ليس في صالحنا.

يتركني مهرولًا ليحضر سيارته؛ بينما يحتشد الصحفيون حولي للتصوير والمدعوون أيضًا! الكل يتحدث عن الصور المُشينة، يُمطرونني بالأسئلة فأحتمي بمظلة الصمت، أشقّ طريقي بينهم بصعوبة؛ ضامًّا «تغريد» إلى صدري؛ وكم تمنيت لو ضممتها بين أضلعي وواريتها عن أعينهم المتشفّية وأسئلتهم الجارحة!

يتجمهر المزيد من الصحفيين حولي؛ أصرخ فيهم غاضبًا:

- ليست للعرض أيها الأغبياء؛ فهي «تغريد» العالية؛ ولن يُسقطها أيُّ منحرف منكم ولن تبخسها قدرَها أقاويلكم!

يفزع الصحفيون من كلماتي الغاضبة، فهي أول مرة يرونني أتكلم هكذا، لكن لا شيء يهمني، وحدها «تغريد» عالمي أجمع، أخرج من باب القاعة؛ تتبعني والدتها باكية، أهبط درجات القاعة، متقدمًا نحو سيارة أخيها.

وضعتها بالكرسي الخلفي ثم خاطبته:

- خذ معك والدتك واذهبا لأقرب مشفى؛ وأنا سأقود سيارتي بأثركما، هيا.

يفتح أخوها الباب ويجلس والدته المنهارة ومن ثَمَّ يلتفُّ ليتخذ مكانه أمام عجلة القيادة، بينما أبتعد أنا تجاه سيارتي كي أستطيع اللحاق بهما.

لا أعلم كيف تمكنتُ من القيادة، كيف تمالكتُ أعصابي للتصرف؛ لقد تهاوى قلبي حينما رأيتها تتهاوى أمامي، أزهقتْ روحي حينما رأيتها مغشيًّا عليها من دون حول ولا قوة، لكنَّ روحي ردت إليَّ ما إن احتضنتْها ذراعاي؛ أيدرك أحدكم مدى ألمي؟! «تغريد» حبيبتي؛ نور قلبي وربيع عمري، يتم طعنها هكذا؟! وممن؟! من أقرب الأقربين لها؛ كيف واتتهما القوّة لفعلها؟! أي جرم ارتكبته بحقهما ليعاقباها هكذا؟

آه أود لو أصرخ بما يعتمل في نفسي؛ ربما انهار جمود العالم وشعر بلوعة قلبي؛ أيُعقل أن يحدث هذا؟! ومع من؟! مع ملاك ك»تغريد»، وأن تتكشف لها الحقيقة أثناء عرسها، وبهذه الطريقة الفجّة، لا أصدق!!

قلتُها ضاربًا عجلة القيادة بقبضتي.

***

حينما وصلنا المشفى؛ تم وضع ابنة قلبي على ناقلة المرضى ليتم إسعافها؛ الممرضات يهرولن؛ يعملن بسرعة كخلية نحل؛ يستدعين الطبيب المناوب للمعاينة؛ يعلقن المحاليل، يفعلن كل ما بوسعهن لإفاقتها؛ فحبيبة قلبي لم تتحمل الصدمة، فتهاوت كما تهاوى ضغطها؛ أي جرم فعلتْه ابنتي يا الله ليكون هذا جزاؤها؟! أثق بعدلك كثيرًا؛ لكن أرجوك أن تحفظ لي ابنتي، اللهم لا اعتراض على قضائك؛ اللهم لا اعتراض.

***

أموت قهرًا؛ داخلي بركان مستعرٌ يود لو يقذف حممه، كم وددت لو صببت غضبي على السافل «شهاب»، كم تمنيت لو أطبقتُ بيديّ على عنقه فأزهق روحه؛ كما فعل بأختي؛ يا الله إنها ليست أختي؛ إنها طفلتي؛ أول مّن

حركت مشاعر الأبوة بداخلي، كيف لحقير مثله أن يفعل ذلك بها؟؛ كيف لم أحمِها منه ومن الحقيرة «ناي»؟ أيُعقل أن يوجد بالعالم دناءةٌ كهذه؟

ربّاه بمن نثق إذن إن كانت الضربات القاتلة تأتي من أقرب الأقرباء؟! أقسم بالله إن حدث شيء لـ«تغريد»، فسأقضي ما تبقى من عمري في إحالة حياتهما جحيمًا.

***

حينما توقفت سيارة «حازم» أمام المشفى، ترجّلتُ بدوري وتبعتهم للداخل؛ رأيت «تغريد» ممدّدة على ناقلة المرضى فاقدة لمظاهر الحياة، وكم قصم هذا ظهري! لوهلة شعرت أنّ قدميّ لن تحملاني؛ لكنني تحاملت على نفسي؛ لن أسمح لنفسي بالانهيار في موقف كهذا؛ لن أسامح نفسي إن حدث لها شيء!

اتكأت على حائط ممر غرفتها؛ انزويت على نفسي؛ أسمع نحيب والدتها؛ وأرى توتُّر أخيها والغضب الذي يلون ملامحه؛ فألوم نفسي؛ لِمَ لمْ أخبرها بما رأيته بين «شهاب» و«ناي»؟ أي جبن تملكني؟ ليتني أخبرتها وأرحت ضميري؛ حتى وإن لم تصدقني؛ على الأقل ما كنت اختُبرت بما حدث اليوم؛ ربّاه كن معها، خذ حياتي يا الله بالمقابل؛ لكن لا تختبرني فيها.

يخرج الطبيب من غرفتها متجهًا إلى أخيها، أقتربُ منهما بلهفة؛ ينظر الطبيب إلينا ويتحدث:

– عروسكما بخير؛ فقط انهار ضغطها مرة واحدة، تمّ سحب عينات من الدم لعمل التحاليل اللازمة، كما تم وضع المحاليل المناسبة، عندما أفاقت كانت تصرخ مُنادية والدتها وأخاها، لذا تم إعطاؤها مهدّئًا؛ هي الآن نائمة.

ينظر إليّ وإلى «حازم» سائلًا:

– من منكما أخو العروس؟

يجيبه «حازم»:

– أنا.

– هل يمكنك أن تأتي إلى مكتبي لحظة؟ لديّ ما أريد الاستفسار بشأنه.

– حسنًا أنا قادم إليك.

أجابه «حازم» ومن ثم التفت إليَّ:

– هل يمكنك الاهتمام بوالدتي ريثما أعود؟

من دون أن أجيبه أومئ له موافقًا، يمضي خلف الطبيب وقلبي يتمنى لو أمضي لغرفة «تغريد» للاطمئنان عليها.

* * *

دلفتُ إلى غرفة الطبيب فبادرني:

– تفضل بالجلوس.

أتخذ المقعد المقابل له سائلًا:

– هل هي بخير؟!

– حاليًا نعم، من الناحية الجسدية، لكن من الناحية النفسية لا أستطيع الجزم بذلك، أخبرني ما الذي حدث لها؟! ما الذي يجعل عروسًا في ليلة عُرسها تتهاوى هكذا؟! عليك مصارحتي بكل شيء حتى أتمكن من تقييم الحالة وترشيح أفضل الأطباء لمساعدتها.

أجيبه وغضب أسود يتصاعد بداخلي، يدفعني لإحراق العالم:

- زفافها لم يكتمل، لقد خانها العريس مع صديقتها المقربة، وليتهما اكتفيا بذلك، بل عرضا خيانتهما بشريط فيديو تم تشغيله أثناء حفل العُرس على مرأى ومسمع المدعوين أيضًا، هل يمكنك تخيُّل هذا؟! كانت هدية العُرس من صديقتها المقربة.

يفرد الطبيب يديه أمامه، ساحبًا نفسًا عميقًا:

- الآن فهمت، أعلم أنَّ الصدمة شديدة عليكم جميعًا، لكنها ستكون أشد وطأة عليها، لذا دعني أخبرك أنَّ مشاعر غضبك هذه لن تفيدها، يجب عليك التحلّي بالهدوء، وإقناع والدتك بالتماسك أيضًا، فانهياركما هذا لن يفيدها، أما الآن فيمكنكما الذهاب وتركها.

هي نائمة على كل حال ولن تستيقظ إلا باكرًا، اذهبا وخذا قسطًا من الراحة فحاليًا لا يوجد شيء لتفعلانه، وغدًا يمكنكما مقابلة الطبيبة النفسية التي ستتولى متابعة الحالة معي.

- ما هي الآثار النفسية المترتبة على تلك الصدمة برأيك دكتور؟

متنهدًا:

- لا يمكنني الجزم بأي شيء، وحدها الطبيبة النفسية مَن تستطيع معرفة ذلك وبعد المعاينة أيضًا، فلندعُ الله أن تكون العواقب أقلَّ ضررًا من توقعاتنا.

استقمت مصافحًا:

- شكرًا لوقتك دكتور.

قلتُها ومن ثم اتجهتُ خارجًا من الغرفة.

***

مضى «حازم» خلف الطبيب، وقلبي يتمنى لو مضيتُ إلى غرفتها للاطمئنان عليها، طالبت بكوب ماء من أجل والدة «تغريد»، فقد كانت في حالة انهيار، بعد عدة لحظات وجدت جلبة أمام الرُّواق، فذهبت لمعرفة سببها، وجدت بعضًا من الصحفيين يحاولون الوقوف على القصة، وسؤال بعض الممرضات عن الحالة، فذهبت إليهم في محاولة لإرسالهم بعيدًا، كي لا يسترسلوا في نسج المزيد من الإشاعات حول «تغريد».

ولأنَّ طبيعة عملي كمدير أعمال جعلتني على اتصال دائم بالإعلام، مما أهلني لاحتواء فضولهم، بادرتُهم قائلًا:

- رجاء منكم احترام المكان، يوجد مرضى في حاجة للهدوء والسكينة، أما عن الأستاذة «تغريد» اطمئنوا، فهي بخير، ولا تعليق لديها على الحدث لأنَّ ما عاد أيٌّ من الأطراف يمتُّ إليها بصلة، لذا أي سؤال لدى حضراتكم، يمكنكم معرفة إجابته بالرجوع إلى أصحاب الحدث نفسه وسؤالهم شخصيًّا، شكرًا لكم.

قلتها مُديرًا ظهري لهم مُنهيًا فضولهم وأسئلتهم.

ثم التفتُّ إلى طاقم الممرضين مُحذرًا:

- مجرد توضيح، إذا حدث وتسرب أيّ خبر يخص الآنسة «تغريد»، فسأقاضيكم جميعًا، لأنَّ المرضى وأسرارهم أمانة لديكم، هل هذا مفهوم؟!

قُلتها مُتفرّسًا بأعينهم.

ردد الجميع بصوت واحد:

– مفهوم سيادتك.

– شكرًا لتفهمكم.

قلتها وأنا أبتعد عائدًا حيث والدة «تغريد».

حينما عدت إلى والدة «تغريد»، صادف ذلك عودة «حازم» من غرفة الطبيب، بادرته والدته سائلة:

– ماذا أخبرك الطبيب يا «حازم»؟

– إنها بخير الآن أمي؛ مؤشراتها الحيوية بحالة جيدة؛ نائمة جرّاء المهدئات التي تم حقنها بها؛ لذا سأقلك للمنزل لتنالي قسطًا من الراحة؛ حتى تستطيعي التماسك أمامها غدًا.

لن أبرح مكاني يا «حازم»، سأبقى هنا إلى جوارها؛ ثم مَن يدري؟؛ ربما أتى ذلك الحقير إلى هنا.

قاطعتُها بقوة:

– لن يجرؤ، فهو جبان لن يفعلها، على الأقل حاليًا؛ وإن أتي فسأتصرف معه بنفسي.

ينظر إليَّ «حازم» وكأنه لم يرَني إلا للتوّ، بادرني مصافحًا:

– «حازم» أخو «تغريد»؛ لم يتسنَ لي معرفتك من قبل!

مددت يدي مصافحًا:

– «رامز كارم»؛ مدير أعمال الفرقة، وصديق للأنسة «تغريد».

ينظر إليّ مقيِّمًا:

– تشرفت بك، وشكرًا لك على تواجدك؛ كانت ليلة مُرهقة للجميع؛ لذا يمكنك الذهاب؛ شكرًا لكل ما فعلته.

– من الأفضل أن تُقلَّ والدتك إلى المنزل للحصول على بعض الراحة، بينما أمكث أنا هنا حتى تأتيا في الصباح؛ أو تأتيني قبلًا؛ لا يمكننا ترك الآنسة «تغريد» وحدها، ولا يمكن لوالدتك أن تظلّ هكذا، لن تتحمل صحتها هذا الوضع.

ينظر إليّ مُتعجبًا؛ مقيِّمًا؛ مفكرًا كمن يوازن أموره:

– حسنًا سأُقلُّ والدتي إلى المنزل ومِن ثم سآتي إلى هنا كي تتمكن من الذهاب إلى منزلك.

– خذ ما تشاء من الوقت؛ فلن أبرح مكاني؛ ثق بذلك.

يلتفت «حازم» لوالدته:

– هيا أمي لنذهب؛ فلا داعي لبقائك؛ على كل حال هي لن تفيق قبل حلول الصباح؛ هيا أمي ستحتاجين غدًا لكل طاقة لديك كي تستطيعي التماسك أمامها.

أعقب كلامه بأن ساندها لتقف، ثم التفت إليّ:

– لن أتأخر.

– حسنًا أنتظرك.

مضى «حازم» ووالدته بينما خارت قوايَ فاتخذت مقعدًا ليحمل ثقل جسدي، فقدماي من الصدمة ما عادتا تحتملان وكأنها لم تكن

ليلة واحدة وكأنها ليلة امتدت لعدة ليال، ألتفتُ ناحية غرفة «تغريد» وقلبي يردد:

- ما الذي فعلتُه بك حبيبتي؟ كيف لم أحمِكِ منهما؟ أي خسة تملكتني يا نور قلبي؟ كوني قويّة من أجلي رجاء، لا تجعليهما يهزمان روحك.

الفصل التاسع عشر

خرجت من المشفى وقلبي ممزق بين «تغريد» المُغتالة بخنجر الخسّة وبين والدتي التي تكاد تموت قهرًا لما حدث، طوال الطريق لم تتوقف أمي عن قول: – كنتُ أعلم يا «حازم»، كنت أعلم أنه حقير، قلتُ لك أنَّ هناك شيئًا ما يُقلقني حدَّ الموت، لكنك وأختك لم تكترثا لكلماتي.

لم تتوقف طوال الطريق عن البكاء، لدرجة أني خشيت أن تنهار جراء ارتفاع ضغطها، حاولت مواساتها قائلا:

– أعلم أمي، لكن مَن كان يدري؟ ولم نكن لنحكم على الآخرين من خلال الحدس وحده، اهدئي رجاءً، لن يفيدك أو يفيد «تغريد» ما تفعلينه بنفسك، ادعي لـ«تغريد» عوضًا عن البكاء، ادعي الله بأن يمرر الأمر بسلام دون أن يترك أثرًا بروحها، ودون أن تدخل دوامة الانغلاق على النفس.

حينما وصلنا للمنزل، كانت أمي لا تستطيع التحامل على نفسها أكثر من ذلك، لذا حملتها ومِن ثم وضعتها على الفراش، فبكت قائلة:

– تُذكرني بأبيك رحمه الله، لطالما انهرتُ أمامه في كل موقف لا تتحمله أعصابي، ولطالما حملني كطفلة تملكها الرعب.

ابتسمت لها:

– وسأظل كأبي أحملك بقلبي وفوق رأسي ما دمت على قيد الحياة، كل دقيقة وكل ثانية حتى وإن لم يتملكك الرعب حبيبتي.

ترقُّ ملامحها فتحتضن وجهي:

– آسفة بُني إن قسوت عليك ولمتك على ما حدث، آسفة على انهياري هكذا.

– حبيبتي لا تفعلي هذا، كُفي عن سلخ نفسك وحاولي أن تأخذي قسطًا من النوم، أعدك أنَّ كل شيء سيمرُّ على ما يرام.

– إن شاء الله بنيّ، أدامك الله لي ولا حرمني منك ومن «تغريد».

– ولا حرمنا منك غاليتنا، سأجهز بعض الملابس لـ«تغريد» ثم أذهب إليها، عندما تستيقظين اتصلي بي، أستودعك الله.

– استودعكما الله الذي لا تضيع ودائعه.

– تصبحين على خير أمي.

قلتها خارجًا من غرفتها ذاهبًا إلى غرفة «تغريد»، حضَّرت بعض الملابس كي تبدل «تغريد» ثيابها، لا أريد لها أن تتأذى من رؤية نفسها بفستان الزفاف بعد ما حدث، ليتني أستطيع محو تلك الليلة من تاريخها! انتهيت مما أفعل فمضيت مغادرًا إلى المشفى، حيث «تغريد» و«رامز»، ذاك الصديق الذي لم أعرفه من قبل، ولا أعرف سر اهتمامه بـ«تغريد» إلى الآن!

***

الساعة الرابعة فجرًا، أذَّن الفجر، فذهبت إلى الحمام لأتوضأ ومِن ثم عدتُ لأصلي، لا يمكنني ترك «تغريد» والذهاب إلى الجامع، لا يمكنني ترك قطعة من قلبي بعيدة عن عيني، صليت أمام غرفتها،

صليت وقلبي ينزُّ حزنًا وقهرًا على ما أصابها، دعوتُ الله أن ينجيها مما هي فيه، أن ينير روحها ويُنزل بردًا وسلامًا على قلبها، أن تتقبل خيانتهما بنفس محتقِرة وعقلٍ رافض قادر على بترهما من حياتها.

أطلت السجود ودعوت لها بكل ما رُزقتُ من حبها، وبكل ما احتوت نفسي منها، دعوت الله لها كثيرًا، لكن لم أنسَ أن أدعوَ بأن تكون في النهاية من نصيبي، أن تكون جمعي وجامعي!

حينما انتهيت من الصلاة، حضر «حازم» إلى المشفى، بادرني قائلًا:

- تقبّل الله منك صالح الأعمال، تأخرتُ عليك أليس كذلك؟
- لا لم تتأخر، لمَ لمْ تأخذ قسطًا من الراحة؟
- لا داعي لذلك، سأرتاح حينما أرى «تغريد» بخير.
- حسنًا يمكنك الذهاب الآن يكفيك ما واجهته معنا.
- أمتأكد؟! يمكنني البقاء إذ لا شيء لديّ لأفعله.
- يكفيك تعبًا، لتذهب إلى بيتك، شكرًا لك «رامز».
- حسنًا، إلى اللقاء.

وليته ظهري وأنا ألعن قلة حيلتي والظروف التي جعلتني عاجزًا عن البقاء بجانب حبيبتي وحلم عمري، مضيت وكلي يصرخ فيّ:

- ماذا لو أنك صارحته بحبك لها؟! ماذا سيحدث إن صرخت قائلًا:

(لا يمكنني الذهاب، كيف لي الذهاب وترك بعضي هنا)؟!

مضيتُ وبقايا تعقل تهدئ من استعار أفكاري، مضيت حيث سيارتي، جلست بداخلها لكنْ أبيْتُ أن أذهب إلى منزلي، فمكثت بها حتى غشي النوم عيني!

***

صوت «تغريد» تنادي عليّ! أفتح عيني لأجد الممرضة تهزني:

- أستاذ «حازم» عليك أن تأتي معي.

- ما زلت تحت تأثير النوم، لا بدَّ وأني غفوت دون أن أشعر:

- هل استيقظتْ «تغريد»؟

- نعم وهي تصرخ باسمك.

- هل بدلتِ ثيابها؟

- نعم وقبل أن تستيقظ.

لم أنتظر باقي كلماتها إذ هرولت سريعًا إلى غرفة «تغريد»، دلفت إليها ومِن ثم مضيت إلى سريرها،احتضنتها بين ذراعيَّ بما أوتيت من قوة وحب، احتضنتها وليتني أستطيع احتضان ألمها بين جنباتي فلا يبقى بداخلها ما يؤلم!

تطلعت إليَّ من وسط دموعها:

- هل رأيت ما فعلاه بي يا «حازم»؟ قل لي إن ذلك لم يحدث، قل إنَّ كل ذلك كان وهمًا، قل لي إن البارحة لم تكن ليلة ذبحي، وأن ليلة عرسي لم تأتِ بعد، قل لي إن «ناي» لم تخني، لم تستحل صداقتنا هكذا، قل لي إن «شهاب» لم يفعلها، وأنَّ حبنا لم يكن قصورًا من وهم، قل لي إن ما رأته عيناي هو مجرد كابوس وانتهى.

قل لي إنّ ما رأيته وما أشعر به هو مجرد حلم سيئ لا أكثر ولا أقل وأنَّ كل ذلك سيمحي في التو، قل لي يا «حازم»، قل لي أرجوك، قُتلت يا «حازم» قُتلت، وعلى يد مَن؟ ولمَ ولماذا وبأيّ ذنب؟!، أخبرني أرجوك مما عُجنا! أي قساوة قلب امتلكا، ولِمَ يوم العرس وليس من قبل! «حازم» جاوبني! جاوبني يا «حازم».

قالت كلماتها الأخيرة وصراخها تتصدع له جدران المشفى، ويرتجُّ له أرجاء جسدي، بينما يدها تتشبث بملابسي كغريق على شفا الموت، كانت تبكي وصوت نحيبها رصاصات تغتال قلبي وتؤجج بداخلي نار الانتقام، آه لو استطيع قتلهما! جسدها يرتعش بين ذراعيّ، كعصفور وسط عاصفة ثلجية وقد كسرت جناحاه فما عاد قادرًا على الطيران.

أحتضنها بشدة:

- أنا بجانبك ولن أتركك أبدًا، سنتجاوز ذلك سويًّا، كل ذلك سوف يمر.

- لِمَ فعلا ذلك يا «حازم»؟ لمَ فعلا ذلك؟ لِمَ؟ لِمَ؟

يتعالى صوت نحيبها، يدلف للغرفة الطبيب المناوب آمرًا الممرضة بإعطائها حقنة مهدئة.

أصرخ فيهم:

- لا داعي لذلك، ستهدأ الآن فقط أتركوها معي.

يقترب مني الطبيب:

- لا بدَّ من إعطائها حقنة مهدئة حتى يأتي الطبيب النفسي.

أنظر إليها بعجز، أحتضنها بكل ما فيّ من حزن، تهدأ بين يديّ وعيناها تعاودان الانغلاق، معلنة الاستسلام للنوم، أعدل من وضعية جسدها، أضع رأسها على الوسادة، أمسح على شعرها، وليتني أستطيع مسح عذابها!

أخرج من غرفتها لأفاجأ بـ«رامز» أمامي، قلق، خائف، تتقافز الأسئلة بعينيه، بينما تقف الكلمات حائرة على شفتيه!

بادرته متعجبًا:

– أما زلت هنا؟

– كيف حالها؟

– لم تتحسن كثيرًا، ما زالت تعاني الصدمة.

– هل يمكنني رؤيتها؟

أتعجب كثيرًا من طلبه، يلاحظ تعجبي وترتبك ملامحه، أجاوبه بتنهيدة:

– أعطوها مهدئًا الآن، لذا هي حاليًا نائمة، ولا أعلم إن كان مسموحًا لأحد رؤيتها!

– حسنًا أنا ذاهب لمقهى المشفى، إن أردت يمكنني أن آتيك بكوب من القهوة فغالبًا لم تنم ليلتك.

– أنا قادم معك، فلا شيء يمكن فعله حاليًا.

***

عقلي يحترق، صور تعرض أمامي لي و لـ«ناي» معًا! كيف حدث ذلك؟ ومتى أُخذت تلك الصور؟ الصدمة تشل تفكيري، اللعينة «ناي» تبًّا لها، نفذت تهديدها: (إن لم تكن لي فلن تكون لـ«تغريد»)، العالم يضيق من حولي، الجميع في حالة ذهول، أصرخ في منسق الحفل:

- أوقف هذا العرض!

ألتفت إلى «تغريد» لأجدها تتهاوى بين ذراعي «رامز»! أصرخ فيه:

- اتركها لي!

لكنّ قبضة «حازم» تسقطني أرضًا، يذهبان بـ«تغريد» من أمامي وينهار رهاني بالفوز بها بأي ثمن، يتجمهر حولي المدعوون ونظرات الاستنكار بأعينهم وآلاف الحكايا تنطق على وجوههم، يحاصرني الصحفيون بالأسئلة، صور من كل حدب وصوب، نهضت واقفًا ومِن ثم مضيتُ خارجًا من القاعة!

ما زال الصحفيون يُمطرونني بالأسئلة، وما زالت جعبة الكلمات لديَّ خاوية، تفكيري متوقف، مبعثر، كمظهري، ذهبت إلى سيارتي، ما زالت زينة العُرس تكللها، لكن دون «تغريد» للأسف، استقللتها ومضيت كمن يهرب من الجحيم.

حينما وصلت إلى منزلي وجدت حشدًا من الصحفيين قد سبقني، يحومون حولي كالذباب، جميعهم يسألون أسئلة حول الفضيحة المدوية، وأين «ناي» الآن؟!

أمضي بطريقي منكس الرأس، لأول مرة أتوارى من الكاميرات وأتهرب من لقاء الإعلام، حسنًا «ناي» فلتدعي الله كثيرًا كي أرحمك.

دلفت منزلي وأغلقت بابه بسرعة متفاديًا تهافتهم وأسئلتهم المزعجة، أغلقت هاتفي أيضًا فهو لم يكفَّ عن الرنين منذ أن تركت القاعة، سأخذ حمامًا باردًا وأنال قسطًا من النوم، وغدًا أعود «شهاب» العظيم، وسأنجح كما المعتاد.

***

لم أستطع الذهاب إلى منزلي ففضلت المكوث في سيارتي، كنت قد طلبت من إحدى الممرضات بشكل ودي أن تتصل بي حينما تستيقظ «تغريد»، لذا حينما هاتفتني لتخبرني أنها استيقظت، لم أتمالك نفسي وذهبت فورًا إليها، لأفاجأ بـ«حازم» خارجًا من غرفتها! ينظر إليَّ بتساؤل، ينعقد لساني فلم أعدَّ أسبابًا مناسبة تفسر استمرار تواجدي، ربما شعر بما يعتمل بقلبي، لكن لا يهم سرعان ما سيعرف إن عاجلًا أم آجلًا.

اصطحبته للكافيتريا، طلبنا قدحين من القهوة، بادرته قائلًا:

– هناك ما أود الحديث بشأنه، وأرجو أن يتَّسع صدرك لي.

ينظر إلي بتركيز:

– تفضل أسمعك.

– اسمي «رامز كارم»، عمري ثلاثون عامًا، مدير أعمال «شهاب» خاصة والفرقة عامة، الجميع يشهد بأخلاقي ويمكنك السؤال عن صحة ذلك، أحب الآنسة «تغريد» منذ زمن، لكنه حب بساق واحدة، حب عاجز مبتور كما ترى، فقلب «تغريد» لم يرَ سوى «شهاب».

أعلم أنك لست في حاجة لسماع ذلك، كما أعلم أنه لا المكان ولا الزمان المناسبان لذلك، وقد ترى أنني أستغل ما حدث لصالحي، لكن كل ما أريده هو أن أكون بجانب «تغريد» فقط، لا أريدها أن تمر بذلك وأنا بعيد عنها، لا أريد أن أشعر بالعجز وأنا مقيد لا أملك منها اقترابًا، لذلك اسمح لي أن أطلب يد أختك الآنسة «تغريد».

ينظر إليّ ببلاهة الصدمة تلون محياه، يمسح وجهه بيده متنهدًا:

- يبدو أنها ليلة لا تريد أن تنتهي، ما كل هذه الصدمات؟! مهلًا «رامز»، أتدرك ما تقوله؟! تطلب يد أختي التي كان زفافها منذ بضع ساعات؟! زفاف انتهى بكارثة ما زلنا لا نعلم أبعادها بعد؟

ثم إنك قلت أنَّ «تغريد» لم ترَك، فكيف لي بالموافقة عليك؟! كيف لي أن أخوض هذا النقاش من الأساس، بينما أختي لم تتعافَ من صدمتها بعد؟! لا بد أنَّ الصدمة أفقدتك صوابك أو قلة النوم.

- أعذرك تمامًا وأقدّر ما أنت فيه، وأحترم صراحتك، لكن لا سبيل آخر للبقاء بجانبها، طلبتُ منك يدها كي لا تبعدني عنها، أريد مساعدتها وأنا أكثر من قادر على ذلك، أريد أن آخذ بيدها وأمنحها من روحي كي تخرج من هذه الكارثة بسلام، بعدها سأترك القرار لها، وإن لم أستطع الحصول على قلبها، سأتوارى بعيدًا عنها ونهائيًّا.

يمسح على وجهه بتعب:

- لا أعلم «رامز» أنا مشتت ولا يمكنني تقرير شيء الآن!.

- لا أريد قرارًا لكن أيمكنك أن تعدني بأنك ستفكر في طلبي؟!

يتنهد بقوة:

- لا يمكنني أن أعدك بما ليس في استطاعتي، فالقرار ليس بيدي، لكن أعدك بأني لن أبعدك ما لم تطلب «تغريد» ذلك، أو كان وجودك عائقًا أمام شفائها، هيا انهِ قهوتك لنعود إليها.

- لقد انتهيت هيا بنا.

قلتُها ناهضًا يتبعني «حازم» بالنهوض، ومن ثم اتجهنا إلى الممر المؤدي لغرفة «تغريد» وكلانا يلفُّه الصمت.

الفصل العشرون

ليلة ثقيلة تأبى أن تنتهي، ها هو «رامز» يكمل ليلتي بطلب غريب، يريد الزواج من «تغريد»! منتهى السخرية والعبث، «تغريد» المغدورة من أقرب الناس إليها، أي حطام تريد أن تزج به نفسك يا «رامز»؟! أي عقل لديك؟! لم أدرِ بما أجاوبه، وكأني فقدت قدرتي على النطق، عقلي مشوش وفكري متوقف، جسدي منهك، وقلبي يبكي على «تغريد» ابنة روحي.

وعدته بعدم إبعاده عنها، لكن كل ما فيّ يستنكر الطلب، لكن ما أصبرني عليه، إنه وسط كل هذا ما زال متمسكًا بالبقاء بجانبها، لا بدَّ أنه مجنونٌ أو مختل ليطلب يد امرأة على هاوية الانهيار! حينما عدنا حيث «تغريد» لم نتبادل الحديث، وكأنّ ما قلناه بكافيتريا المشفى أنهي ما بجعبتنا من كلمات، وكأنما كل منا اتخذ الصمت ستارًا ليواري ضجيج أفكاره، حينها أتت الطبيبة النفسية المختصة بحالة «تغريد»، دلفت إلى غرفتها لتعاينها، فدلفت إلى الغرفة بدوري في أثرها.

التفتت إليّ مخاطبة:

– أنت أخوها أليس كذلك!

– نعم، باشمهندس «حازم» معك.

- معك الدكتورة ««نهال» الطبيبة النفسية المسئولة عن حالة أختك، مبدئيًّا أريد التحدث معك بشكل مفصل، حتى يمكنني فهم ما مرت به ومساعدتها، لذا أنتظرك بمكتبي بعد مروري على باقي الحالات لنتحدث.

أنهت جملتها وهي توصي الممرضة بتخفيف جرعة المهدئ.

- هل ستكون بخير؟

- لا أستطيع أن أجزم بشيء، فأنا لم أتحدث معها بعد، فتأثير الصدمات يعتمد على مدى تماسك الشخصية وسويّة النفس وحجم الصدمة نفسها.

قالتها وهي توصي الممرضة بإخبارها متى استيقظت «تغريد»، ثم همّت بالخروج قائلة: - تشرفت بك باشمهندس، لا تنسَ المرور بمكتبي.

- شكرًا لك دكتورة «نيهال».

ما إن أنهيت جملتي حتى التفتُّ إلى «تغريد» أتأملها وقبضة ألم تعتصر قلبي.

* * *

تخرج الطبيبة النفسية من غرفة «تغريد» ولا أملك حقَّ سؤالها، أنتظر أن يخرج «حازم» ويطمئنني عليها، أحترق انتظارًا، ليتني أستطيع البقاء بجانبها ربما خفتت نيران القلق التي تأكلني، يخرج «حازم» من غرفتها، أهبّ واقفًا لسؤاله:

- ما الذي قالته الدكتورة النفسية؟!

يجلس إلى أقرب مقعد، يستند بظهره إلى الحائط:

- لم تتمكن من معاينتها فـ«تغريد» ما زالت نائمة أثر المهدئ، لكن سأذهب إلى مكتب الطبيبة النفسية بعد قليل للتحدث معها.

أتخذ المقعد المجاور إليه:

- و«تغريد» كيف حالها؟

- لا جديد، نائمة، ساكنة كملاك تم اغتياله.

- متى ستذهب إلى والدتك؟!

يغمض عينيه بإرهاق:

- ربَّاه أمي لم أطمئن عليها.

- اذهب إليها «حازم» بعد أن تتكلم مع الطبيبة، سأمكث هنا ولن أتحرك.

- حسنًا، سأذهب للتحدث مع دكتورة ««نهال» أولًا ومن ثم سأذهب إلى المنزل للاطمئنان على أمي، لن أتأخر.

- خذ وقتك لا داعي للعجلة.

- إن حدث أي شيء اتصل بي، لن أوصيك على «تغريد» يا «رامز».

- أيمكن للإنسان أن يغفل عن نفسه؟!

ينهض كمن يحمل أثقال العالم على ظهره، يمضي تجاه غرفة الطبيبة تاركًا إياي أمام باب غرفة «تغريد»، وكأنه لا يمكنني أن أجتمع بها إلا وبيننا حائل ما!

***

أتعلمون ما هو الجيد في كونك حلم أحدهم! أنك تستطيع استخدامه متى شئت، يصبح عبدًا لك يأتمر بأمرك ويقضي أيامه بانتظار إشارتك! كنت أنا مَن اقترحت على «تغريد» اسم منظم الحفل ليقوم بالترتيب لزفافها، «حبيب» ينتظر مني إشارة.

زكيته لدى «تغريد» تحسبًا لمجريات الأمور، فما تعودت ترك نفسي لاختيارات القدر وقد صدق حدسي، لم يحتج الأمر معه للكثير من الحنان والعشق ليقوم بتلك الخدمة من أجلي، لم أمنحه بعضًا مني كما منحت «شهاب»، لكنه ما زال باقيًا على وصالي!

منتهى السخرية أن ترى أحدهم يحترق من أجلك بينما تحترق روحك من أجل آخر! أعطيته الاسطوانة التي تحوي الصور كي يبثها بالحفل، وقد فعل ما طلبته منه، دون أن يراجع محتواها!،

سافرت بعدها للإسكندرية كي أنعم بالهدوء، تاركة ورائي إعصارًا مدويًا، وها أنا منذ البارحة أتابع أثار هديتي على سير الحفل.

أتفقد مواقع التواصل الاجتماعي ومنشورات الصحف الإلكترونية كي أرى بعيني تداعيات الأمر وتأثيره، ابتداء من «شهاب» مرورًا بــ«تغريد» إلى جميع المدعوين، كم انتشيت سعادة لأنَّ الحفل لم يكتمل!

كم رقصت فرحًا لأني فزت برهاني، فــ«شهاب» بعد الفضيحة لن يصلح لــ«تغريد»، أعلم ذلك جيدًا، لا تلوموني، لم يكن أمامي إلا أن أحترق وأحرق الجميع معي.

لم يكن أمامي إلا أن أذيقهم مرارات العالم التي تجمعت بقلبي، أن أُبَكّي أعينهم، لا أن أبكي، فـ«ناي» لا تبكي ولا تنهزم، ولا تقع في الحب، لكنها أخطأت وفعلت!

غبية كنت، وتمسُّك «شهاب» برهانه كان أكثر غباء مني، كان يسبقني بخطوة لكن ضربتي جعلت الوضع متعادلًا!

أمسكت هاتفي وكونت رقم «شهاب»، الساعة التاسعة صباحًا، ربما ما زال مستيقظًا ولم تذق عيناه النوم!

يدق الهاتف فيجيبني صارخًا:

- «ناي»! أهذه أنت؟

- نعم يا وسيم، إنها أنا.

- أتجرئين على الاتصال بي بعد ما فعلتِه؟!

- اهدأ ودعنا نجد مخرجًا، هذا أفضل للجميع.

- وما هو المخرج برأيك؟ أن أتزوجك؟!

- ولِمَ لا؟ ألا أليق بك؟ لا تُنكر أنك تعشقني.

- كيف تتكلمين هكذا؟! أي عقل مختل تمتلكين؟! ألا تشعرين بالعار؟، أي عاهرة أنت؟!

- العاهرات يفعلنها من أجل المال، بينما منحتك جسدي ومشاعري وأحببتك لكنك ضربت بكل هذا عرض الحائط من أجل امتلاك جسد امرأة أخرى، أعتقد أن كلانا عاهرٌ على طريقته!

- عاهرة وحقيرة، أي وحل خطته قدماي؟! سأقاضيكِ، سأقضي على مستقبلك ولن أعدم وسيلة لفعل ذلك، سأجعلك تتمنين لو أنك لم تولدي.

- وأنا لن أصمت، سأخبر الجميع بما كان بيننا، سأقول لهم إني أحبك وأنَّ ما بيننا كان عشقًا حتى وإن ادعيت أنت خلاف ذلك، لن أنزويَ ضعفًا كما تفعل، فأنا لا أكذب، ألم يكن عشقًا يا وسيم؟

- كان خطأً عليَّ إصلاحه وسأعمل على ذلك.

- لكنك لن تنال «تغريد» بالنهاية، خسرت رهانك، كما خسرت أنا سمعتي، فلا طائل من استمرار الخسارة بعدائي، سأتركك لتفكر وتعيد حساباتك، لكن لا تنسَ أنه ما زال بجعبتي الكثير، كما أنك تحتاجني للحفل، ولا تتعب نفسك بالمرور على منزلي فأنا الآن خارج المدينة، يمكنك مهاتفتي متى أردت.

أنهيت جملتي مغلقة الهاتف وكلي يتآكل حنقًا، حسنًا «شهاب» لِنرَ مَن منا المنتصر.

❋❋❋

أنهيت مكالمتي مع «ناي» وكلي يستعر غضبًا، بالبداية لم أصدق عينيَّ حينما رأيت اسمها على شاشة هاتفي، لكن تأكدت ما إن أتاني صوتها، الحقيرة كم تمنيت لو أنها أمامي فأزهق روحها، حقيرة وبلا حياء، أفعي متلونة تعرف كيف تتغلغل لعقلك، تريد استكمال اللعبة وأنا ما عدت أطيق استمرارها، ليس كرهًا لكن ما عاد هناك طريق يجمعني بــ«ناي».

الغبية أغلقت كل الطرق التي قد تجمعنا يومًا ما، ألقتنا بطريق اللاعودة فكانت نهايتنا، أكرهها وأكره عدم قدرتي على قتلها داخلي، ما زال جزء مني معلقًا بها، تبًّا تبًّا، لا أعلم ما بي، متى ضعفت أمام امرأة؟!

تلك اللعينة، تعرف أني ما زلت أريدها لذا تتكلم أمامي وكلها ثقة، أخذت حمامًا لأهدئ أفكاري ثم ارتديت ثيابي، لا بدَّ لي من الذهاب للمشفى حيث «تغريد» ربما استطعت التأثير عليها وإصلاح الوضع، لا بدَّ لي من فعل شيء من شأنه إصلاح صورتي أمام الجمهور، فأنا «شهاب» العظيم ولن تُخسرني «ناي» ما بنيته.

***

تركت «رامز» ومضيت حيث حجرة الطبيبة النفسية، طرقت الباب ومن ثم دلفت للداخل.

- تفضل باشمهندس.

اتخذت مقعدًا أمام مكتبها:

- تحت أمرك دكتورة ««نهال».

- لديّ صورة عما حدث للآنسة «تغريد» بحفل زفافها، لكن أريد معرفة بعض التفاصيل التي تتعلق بــ«تغريد» نفسها، شخصيتها مدى تحملها للأزمات، مدى ثباتها عند الصدمات، ومدى قرب صديقتها وأيضًا مدى تعلقها بزوجها أو من كان مفترضًا أن يكون زوجها.

أتنهد بعمق، الكلمات مثقلة لا تستطيع الصمود على شفتيّ، تتساقط في ضعف مخلفة مرارة بحلقي:

-«تغريد» أختي الصغيرة وابنتي البكر، اختبرت الفقد باكرًا فقد توفى والدنا وهي صغيرة، أحطتها برعايتي واهتمامي، لكن مهما فعلت يبقى احتياجها لوجود الأب لا ينتفي، هي فتاة شجاعة تتحمل الألم لكنها تحتاج للكثير من الحبّ.

لديها مبادئها التي لا تتجزأ، فتاة صنعت نجاحها بنفسها والفضل يعود إلى قوة إرادتها بعد الله، مقتنع أنها فتاة بقلب رجل، لكنها كأي فتاة تحتاج رفيقا لدربها، لذا كان بديهيًّا أن تتعلق بــ«شهاب» قائد الفرقة.

ولمَ لا! فهو عازف مشهور يشار إليه بالبنان، فتي أحلام الفتيات، وربما تتقاتل عليه أختان وتطعن إحداهما الأخرى من أجله كما فعلت «ناي» بــ«تغريد»، «ناي» الأخت التي لم تلدها أمي، «ناي» صديقة «تغريد» وبئر أسرراها، «ناي» التي تخيّلناها طيلة الوقت أنها الوجه الآخر لــ«تغريد» قبل أن نُصدم بمدى بشاعتها.

– برأيك مَن منهما له التأثير الأكبر على حياة «تغريد»؟

– أعتقد «ناي»، كانت كاتمة أسرارها وتوأم روحها، وإن تم تخيير «تغريد» في يوم ما بين «ناي» و «شهاب» لاختارتها، حينما تحب «تغريد» أحدًا تحبه بروحها وتخلص له بحياتها، و«ناي» لم تكن إلا مرادفًا لــ«تغريد».

– يبدو الوضع معقدًا بعض الشيء، بخلافك أنت ووالدتك هل لدى «تغريد» أي مقربين؟!

– على حدّ علمي لا.

– لأكن صريحة، الفترة القادمة ستكون فترة جسّ نبض، بمعنى أنني لا يمكنني التنبؤ بردة فعل «تغريد» بعد ما حدث، ربما تنهار دفعة واحدة، وهذا ما لا أتمناه أبدًا، وربما تلجأ إلى الصمود، لكنه صمود بطعم الوهن، قشرة صلبة تتوارى خلفها عند أول منعطف ستتهاوى ويحدث إثرها انتكاسة.

ربما تنزوي طاردة الجميع خارج أسوار حياتها، لذا في كل الأحوال علينا أن نعمل على مفاهيمها، عليها أن تقتنع أنَّ خيانة «ناي و«شهاب» لها ليست آخر العالم، وأنَّ ذلك لم يحدث لعيب ما بها، وإنما لمرض بشخصيهما، سأحتاج منك ومن والدتك التواجد الدائم والاحتواء، سيأخذ ذلك منا مجهودًا بالطبع، لا أقول إن المهمة سهلة لكنها ليست مستحيلة.

– وأنا تحت أمرك دكتورة، مستعد لأي شيء في سبيل أن تعود «تغريد» كما كانت.

– سأقوم بمتابعتها والتنسيق معك خطوة بخطوة وبإذن الله ستمر تلك الأزمة على خير.

استقمت واقفًا:

– شكرًا لوقتك دكتورة.

قلتها مغادرًا وكلمات الطبيبة تطنّ في رأسي، يا الله كن مع «تغريد» ولا تختبرني فيها.

ظللت أدعو الله حتى وصلت إلى «رامز».

بادرته قائلًا:

- كيف الحال؟

- كما هو، لا شيء جديد.

- حسنًا سأتركك الآن لأذهب للاطمئنان على والدتي.

- أنتظرك.

وليته ظهري استعدادًا للرحيل وإذا بي أفاجأ بـ«شهاب» أمامي!

❊❊❊

لم يكد «حازم» يوليني ظهره حتى وجدنا «شهاب» أمامنا، اندفع إليه «حازم» بغضب:

- من أي تبلد عُجنت؟ أتجرؤ على أن تأتي إلي هنا؟!

قالها وهو ينقضُّ على «شهاب» دون أن ينتظر منه جوابًا.

هببتُ راكضًا لكي أفض اشتباكهما، توسطهما ومن ثم صحت بـ«حازم»:

- «حازم» أمسك أعصابك فوقت تصفية الحسابات لم يحن بعد.

ثم التفتّ إلى «شهاب» مُعنّفًا:

- من الأفضل لك أن تغادر فورًا فوجودك هنا ليس مرحبًا به.

وجدت «شهاب» يعدل من هندامه قائلًا بغضب:

- وبأي حق تتكلم؟ من أنت لتتدخل بأمور لا تعنيك؟

يحاول «حازم» الانقضاض على «شهاب» مرة أخرى صائحًا:

- أقسم لك أني سأحيل حياتك جحيمًا ولن أترك ما فعلته أنت والحقيرة ليذهب هباء، سألاحقكما قضائيًّا وسأعمل على تشوية سمعتك أيها الحقير.

أفض اشتباكهما بضراوة، أصيح بـ«شهاب»:

- لِمَ لا تحافظ على ما تبقى من كرامتك وتغادر فورًا؟ فلن يعجبك أن ترى صورتك في الصحف وأنت مكلل بتورم حول العين أثر قبضته.

- أغادر أنا بينما تبقى أنت؟! أي سخرية تلك؟، مَن بالداخل زوجتي، بأي سلطة تطلبان مني الرحيل؟ «تغريد» وحدها المنوطة بقرار كهذا ولن أرحل حتى أسمعها تقول ذلك.

تثور ثائرة «حازم»، فيعاود الانقضاض عليه، أمنعه بكل ما أوتيت من قوة صائحًا في «شهاب»:

- «تغريد» لم تكن يومًا زوجتك ولن يحدث ذلك بهذه الحياة أو بأي حياة أخرى، لقد انتهيت من حياتها دون رجعة، لتحافظ على ما تبقى من كرامتك وارحل ألم تكتفِ من الفضائح؟! ألا يكفيك أنك كنت مثار حديث الصباح بالصحف ومواقع التواصل الاجتماعي؟، لتحافظ على صورتك أمام الجميع ولترحل الآن.

يضحك باستهزاء:

- ها هو العاشق الجبان يعلن عن نفسه بالنهاية نازعًا عنه عباءة الخوف، ماذا؟ أتعتقد أني لم ألحظ عشقك لـ«تغريد»؟، لم أشعر باحتراقك وهي معي؟ كنتُ أتلذذ برؤيتك وأنت تكتوي بنار الغيرة ونحن معًا، صدقني لن ينفعك رقودك كالكلب المخلص أمام حجرتها

في انتظار إشارة، مَن أنت لتنظر «تغريد» إليك؟! حسنًا «رامز»، سأرحل الآن، لكن ليكن بعلمك أنّ «تغريد» ستكون لي بالنهاية، سترى ذلك بعينيك، لا تكن غبيّا «رامز» وتتحداني لأنني لن أرحمك.

أنهى جملته موليًا إيانا ظهره مغادرًا.

كبركان على وشك الانفجار، يحاول «حازم» اللحاق به، أعترضه:

- «حازم» دعه يرحل ليس وقته الآن.

يصرخ بي:

- اتركني لأزهق روحه، اتركني لأجاوبه بطريقتي.

أبتعد عنه وأتخذ مقعدًا أرتمي عليه بثقل جسدي وثقل كلمات «شهاب» التي تدق قلبي بقسوة، فلا تسعفني الكلمات للرد.

يلتفت إليّ «حازم» و يلاحظ صمتي:

- ما بك؟!

- لا شيء، اذهب لوالدتك «حازم» وأنا باقٍ هنا حتى تعود.

- أأنت واثق؟ ربما تحتاج إلى قسط من الراحة، سأتصرف أنا لا تقلق.

- لن أبرح مكاني حتى أطمئن على «تغريد»، اذهب أنت.

- حسنًا، لن أتأخر.

قالها مغادرًا.

- لمْ أنظر بأثره، فقد غشي روحي السواد، بينما تردد بين جنباتي سؤالٌ قاتل يزهق براعم الأمل لديّ، هل يمكن لـ«تغريد» أن تسامح «شهاب» وتعود إليه؟

الفصل الحادي والعشرون

أفتح عيني بوهن، أنظر لما حولي وغلالة بيضاء تلف عيني، قلبي مثخن بالجراح، وعقلي فقد ثباته من أثر الخيانة، ثقل يجثم على صدري، أشعر كمن سحقت روحه أسفل جرّافة، ثمة أيام تعانق فيها الموت باشتهاء لكنه لا يبادلك الرغبة!

يتناهى إليّ صوت «حازم»، لكن مع مَن يتصايح؟ فيأتيني الجواب مصاحبًا لصوت «شهاب»، أسمع صياحهما والدموع تنهمر من عيني، يتداخل معهم صوت ثالث لا أميزه، يبدو كصوت «رامز»! ما الذي يفعله هنا؟ ولِمَ أتى مع «شهاب»؟ ألا يكفي ما حدث؟!

تنهر دموعي مع تراشق كلماتهم، أستمع لــ«شهاب» وهو يقول: (لن يفيدك رقودك كالكلب المخلص أمام حجرتها في انتظار إشارة) كيف له أن يكون بهذه الوقاحة؟ ما الذي أتى بك يا قاتلي؟ ليتك ترحل «شهاب» وترحل معك خيانتك وعذابي وألمي!

تستمر كلماته المتحدية وكأنني لعبة بيده، يتوعد «رامز» بأنني سأكون ملكه في النهاية، فأقسم لنفسي لن أكون له وإن كانت النهاية الموت، تنهمر دموعي وأكتم صرخاتي بوسادتي، كي لا يسمعها «شهاب» فيعلم مدى انهياري، فبحق ما أوتيت من كسر، لن ترى يا «شهاب» مني سوى النسيان والصد!

تهدأ أصواتهم، ومعها يزداد نحيبي، يا الله أعطني القوّة والصبر.

***

غادرتُ المشفى بعد مشادتي مع «حازم» و«رامز»؛ ذاك الغبي الفاشل؛ مَن هو ليتحداني؟ مَن سمح له بالاقتراب هكذا؟!

تبًّا لك «ناي»؛ تبًّا، يلاحقني مجموعة من الصحفيين؛ يمطرونني بالأسئلة:

– سيد «شهاب» ما تعليقك على ما حدث أمس؟

يتدافع آخر:

– كيف حال الآنسة «تغريد»؟ وأين هي الأستاذة «ناي» الآن؟

أتوقف بكل ما أوتيت من برودة أعصاب، أرتدي عباءة العظمة وألتفت لهم، أوقفت ضجيج أصواتهم بإشارة من يدي؛ رفعت ذقني عاليًا مخاطبًا إياهم:

– ما حدث البارحة هو محض افتراء من شخص حاقد؛ سأقوم برفع دعوى قضائية لرد الاعتبار؛ أمّا الأنسة «تغريد» فهي بخير؛ وسنتمم زفافنا في أقرب وقت شكرًا لكم.

أنهيت كلماتي واتجهت إلى سيارتي؛ استقللتها وانطلقت بكل تأنٍ لأكمل صورة مَن يسيطر على الوضع، أمسكت هاتفي واتصلت بالمحامي الخاص بي:

– «شهاب»، كيف حالك؟

– كنتَ أحد الحضور بحفل الزفاف يا «سعيد»؛ لذا أعتقد أنك تعلم الوضع جيدًا، أريد حلًا لمعضلة الأمس.

يتنهد بعمق:

- لا حلَّ سوى اعتراف «ناي» أنَّ الصور ملفقة؛ حتى لو أقنعت الآنسة «تغريد» بذلك وأتممتما الزواج فلن ينفي ذلك صحة الصور.

- يمكننا التشكيك بالصور وادعاء كذب «ناي»، يمكنني مقاضاتها للتشهير بي.

- «شهاب» التشكيك سهل جدًّا؛ لكن ربما يؤجج نار انتقامها؛ يبدو أنَّ «ناي» امرأة لا يُستهان بها؛ فلا امرأة تخاطر بسمعتها وتتسبب بفضيحة مدوّية لنفسها إلا إذا كانت امرأة ليس لديها ما تخسره، ولا أنصحك بسلوك درب القضاء، لأنَّ الصور صحيحة وسيكتشف ذلك خبير المحكمة؛ حينها ستنقلب الأمور ضدك.

- أتصل بك لتجد لي حلًا، لا لتحشرني بالزاوية!

- يمكننا شنّ حرب إعلامية عليها؛ يمكننا البحث بتاريخها ربما وجدنا شيئًا يسبب لها فضيحة مدوّية؛ يمكننا فعل الكثير، لتبقى كلمتك أمام كلمتها؛ لكن تبقى المعضلة كما هي؛ الصور صحيحة ولا طريق لنفيها إلا بنفي «ناي» نفسها؛ برأيي تفاهم مع «ناي» قبل أن يحشرك الرأي العام بالزاوية.

- ماذا تقصد؟

- ألم تتابع الأخبار هذا الصباح؟، هناك دعوات على مواقع التواصل الاجتماعي تطالب بتنحيتك عن قيادة حفل الوفد الروسي، لأنك بعد فضيحة الأمس أصبحت لا تليق كواجهة مشرفة لمصر؛ ناهيك عن دعوات المتشددين وإثارتهم لحفيظة الرأي العام.

- لن يفعلوا شيئًا؛ مجرد دعوات لأناس فاشلين لا همَّ لهم سوى التحدث عن الفضائح.

- تبقى شوكة في الخاصرة ويجب التصرف بحكمة معها «شهاب»؛ وازن أمورك وأعد حساباتك وأنا تحت أمرك.

- حسنًا؛ انتظر مني خبرًا.

أنهيت المكالمة صارخًا:

- قسمًا بالله، إن خسرت يا «ناي» فلن أخسر وحدي ولن أرحمك.

***

- دكتورة «نهال»، لقد استيقظت العروس.

أمضي خارج غرفتي بينما أخاطب الممرضة:

- حسنًا أنا قادمة، لكن لا تتفوهي أمامها بهذه الكلمة.

- أمرك دكتورة.

- كيف وجدتِها؟!

توقف صراخها، لكن ما زالت دموعها تكلل وجهها.

- ماذا عن مؤشراتها الحيوية؟

قلتها وأنا أمام غرفة «تغريد».

- كلُّ شيء جيد، ضغطها ومستوى السكر طبيعي، لا شيء يدعو للقلق.

حينما دلفت للغرفة وجدتها ساكنة هادئة كحُطام، اقتربت منها معرفة نفسي:

– مرحبًا، معك الدكتورة ««نهال» طبيبة نفسية، كيف حالك اليوم؟

تشيح بوجهها بعيدًا:

– لا أعلم.

– طبيعي أن تشعري بذلك، فما مررتِ به كان فوق احتمال البشر.

– لكنهما بشر أيضًا، فكيف احتملا أن يفعلا بي ذلك؟!

– نعم هما بشر لكن نفوسهما غير سويّة، تعاني نقائص وضعفًا فأصبح الغدر والخيانة بالنسبة إليهما شيئًا عاديًّا.

تنهمر دموعها في صمت:

– وما ذنبي أنا؟ ما الذي فعلته ليحطماني هكذا؟

– لم يكن ذنبك ولا ذنب أحد، لمَ لا نقول إنه اختبار من الله لمدى إيمانك بتدابيره؟ لمَ لا نقول إن الله قد أراد أن يكشفهما لك كي تري أي طريق تخطوه قدماك، التفسيرات كثيرة ولك أن تختاري ما يريح قلبك، لكن بالنهاية أنت الرابحة من كل هذا بالرغم من حجم الخسارة.

تغمض عينيها وما زالت دموعها تنسكب:

– كيف لي أن أكون رابحة بعد أن فقدتهما، وفقدت معهما روحي وثقتي بالبشر وبالحكم على الأشخاص؟

– لا أحد ينسى درسًا ترك بروحه علامة، لذا فقدانك للثقة حالة مؤقتة ستتعافين منها مع الوقت، فنحن لا ننهض إلا بعد السقوط، ولا نمضي للأمام إلا إذا تخففنا من أحمال الماضي.

تنظر إليّ بنظرات ضائعة كمن يشكك بكلماتي:

– أنا متعبة ولا يمكنني التحدث أكثر من ذلك.

– حسنًا يكفي هذا اليوم، سأتركك الآن، لكن إن شعرتِ بالرغبة في الحديث بأي وقت أنا موجودة.

– شكرًا، لكن أريد أمي وأخي.

– هما بالخارج، بالتأكيد سيأتيان بعد قليل.

أنهيت جملتي وأنا أخط تعليماتي على اللوح الخاص بالمريض، ومن ثم غادرت الغرفة.

***

ما زالت كلمات «شهاب» تهز ثقتي بـــ«تغريد»، أيعقل أن تسامحه ومن ثم تعود إليه؟ أنظر إلى باب غرفتها وبداخلي خوف يدفعني للذهاب لسؤالها، لكن بقايا وعي لديّ أبقتني مكاني، ظللت أدعو الله ألا تخيب أملي بها، فلا تعود لـــ«شهاب» حتى وإن لم تكن لي بالنهاية.

بعد برهة دلفت الطبيبة النفسية لغرفة «تغريد»، مما يعني أنّ «تغريد» قد استيقظت، انتظرت حتى خرجت الطبيبة وكلي يدعو أن تمر «تغريد» من الأزمة بسلام، عندما خرجت الطبيبة من غرفة «تغريد» استوقفتها:

– كيف حالها؟

– بخير، لكن مَن أنت؟

– معك «رامز كارم»، صديق لـــ«تغريد».

– أين الأستاذ «حازم»؟

– ذهب ليطمئن على والدته، هل هناك أمرٌ ما؟

– أخبره أني أنتظره بمكتبي رجاء.

– هل يمكنني رؤيتها؟

– لا يمكنني السماح بذلك، فحالة «تغريد» إلى الآن لم تستقر بعد.

– شكرًا لوقتك دكتورة.

– العفو.

قالتها وهي تهمّ بالمغادرة، بينما عدت إلى مقعدي وكلي متعب، أنظر إلى باب غرفتها ولوعة تجتاحني، كيف لها أن تكون بهذا القرب مني بينما أنا بهذا البعد عنها؟!

***

حينما دخلت المنزل اتجهت لغرفة أمي؛ طرقت بابها ثم بعد برهة دلفت إلى الداخل؛ وجدتها جالسة على سجادة الصلاة تبكي داعية الله أن يقف مع «تغريد»، كم آلمني رؤية هذا، أي رجل أنا؟ كيف لم أستطع حمايتهما؟ كيف أقف عاجزًا هكذا، لا أملك تجنيبهما مزيدًا من الألم؟

حينما شعرت بوجودي التفتت إليّ:

– أهلًا «حازم»، كيف أخبار «تغريد»؟

– لا تقلقي أمي هي بخير، كيف حالك أنت؟

– أموت حزنًا للفضيحة التي لحقت بأختك؛ ولا حيلة لديّ سوى أن أدعو الله لها، سأبدل ملابسي الآن لأذهب معك.

ساعدتها لتستقيم واقفة:

- حسنًا سأنتظرك بالخارج.

- «حازم»، هل أعد لك إفطارًا؟

- بل سأعده أنا لك أمي؛ فبالتأكيد لم تأكلي شيئًا منذ البارحة.

- لا أريد؛ كيف لي أن اشتهي الطعام وكلي يضجّ بالمرارة؟!

-لا بد أن تأكلي شيئًا أمي، ولا تنسي أن تأخذي دواءك؛ فأنا و«تغريد» نحتاجك كثيرًا.

- حسنًا بُني.

قالتها فاتحة خزانة الملابس لتنتقي ثيابها.

تركتُها وخرجت من الغرفة متجهًا إلى المطبخ لأعد إفطارًا خفيفًا وبداخلي انكسار يكفي العالم، يا الله امنحني القوة لأعبر بهما إلى بر الأمان.

***

أنتظر ردة فعل «شهاب» بعد محادثتنا الهاتفية، أراقب ردَّات فعل الرأي العام أثر الفضيحة المدوية، هناك دعوات على الفيس بوك ضد «شهاب» تنادي بعزله من قيادة الأوركسترا التي ستقيم حفل الوفد الروسي؛ حيث أنه ما عاد يليق كواجهة مشرفة لمصر.

وهناك دعوات من صفحات المتشددين برفع قضية ضدنا نحن الاثنين؛ كل هذا متوقع كل هذا في الحسبان، لكنهم لا يعلمون أن لا إدانة بدون دليل حتى وإن وُجد شهودٌ للجريمة!

والدليل لا يمتلكه أحد سواي، أمَّا عن الاسطوانة التي تم عرضها بالزفاف فقد تم إتلافها، لكل شيء حساب وثمن، لا أكترث لتلك الدعوات لكن «شهاب» سيفعل؛ لذا أنتظر ردة فعله قريبًا؛ وحتى يحدث هذا سأعد عدتي للانتصار!

أمسكت بهاتفي واتصلت:

– ألو، أريد إرسال باقة ورد من أفضل الأنواع إلى مشفى النصر التخصصي باسم «تغريد رائد»، كما أود أن أرفق معها بضع كلمات، أيمكنك هذا؟!

– بالطبع أنستي، دقيقة لأسجل البيانات.

– بانتظارك!

قلتها وابتسامة تكلل محياي، بينما لسان حالي يردد:

– سامحيني «تغريد» فالحقائق كثيرًا ما تكون مؤذية لكنها تظل بالنهاية حقائق.

***

جالس أمام غرفة «تغريد» منذ أن غادر «حازم»، كم أتمنى لو أراها ولو لثانية، لأطمئن عليها وربما لأقف على حقيقة مشاعرها، رأسي يكاد ينفجر من التفكير؛ فمنذ رحيل «شهاب» وكلماته تحطم جدار ثقتي بنفسي وتتركه أنقاضًا؛ ربَّاه الأسئلة تتقاذفني كموج بحر وأنا غريق عشقها، فأين المفر؟!

– هل تشعر بالتعب؟

– كان هذا «حازم»!

رفعت رأسي إليه:

- أبدًا، أنا بخير.

استقمت واقفًا لأرحب بوالدة «تغريد».

- كيف حالك سيدتي؟

تجاوبني وكلها لهفة:

- بخير بني، هل استيقظت ابنتي؟

- نعم استيقظت وعاينتْها الطبيبة وهي تحتاجك أنت و«حازم».

- سأدخل إليها.

أنهت جملتها دالفة إلى غرفة «تغريد».

يخاطبني «حازم»:

- هل قالت الطبيبة شيئًا؟

- تركت لك خبرًا بأن تمرَّ عليها.

- حسنًا سأذهب إليها لكن بعد الاطمئنان على «تغريد».

- «حازم»، أريد رؤيتها!

- سأخبرها برغبتك هذه، لكن ألا يجب عليك الذهاب لمنزلك لتأخذ قسطًا من الراحة أنت لم تنم منذ البارحة!

- وكذلك أنت أيضًا، لا أشعر بالتعب صدقني!

- حسنًا كما تشاء.

قالها وهو يدلف إلى غرفتها؛ تاركًا إياي وخوفي ووحشة المشاعر.

* * *

حينما دلفت إلى غرفة «تغريد» ناديتها لكنها لم تجاوبني، لوهلة ظننتها نائمة، لكن ما دحض اعتقادي رؤية دموعها المنسابة على صفحة وجهها، خاطبتها بحنو:

- يمكنك البكاء بحضني ابنتي.

التفتت إليّ فاتحة ذراعيها:

- أحتاجك أمي!!

قالتها ومِن ثم انفجرتْ بالبكاء.

ركضت إليها مسرعة فاحتضنتُها:

- ابكِي حبيبتي قدر ما تشائين؛ ابكي مشاعرك وخيبتك فيهما، لكن لا تبكِي فقدانهما.

تزداد حدة بكائها:

- سقطا من العين يا أمي، سقطا من العين، سقطا وبسقوطهما تساقط ربيع قلبي، سقطا وبدويّ سقوطهما تصدعت روحي، موجوعة حدّ الضياع، محطمة حد التشظي، أصبحت ألمًا بهيئة إنسان، الاثنان قضيا عليّ، انظري لما فعلاه بي؟ لم يكفِهما خيانتي سرًّا فقررا ذبحي علانية، لمَ فعلا ذلك؟ ما الذي فعلته بهما؟ أخبريني أمي فعقلي لا يجد تفسيرًا لما حدث!!

تنساب دموعي اثر كلماتها، يحتضر قلبي تحت وطأة أسئلتها:

- أرجوكِ حبيبتي تماسكي، أنقذك الله منهما؛ لأنك نقية لم يرد الله أن تقعي بهاويتهما؛ لتظلي عالية بينما يرفلان هما بالوحل.

- يقال إنّ الله لا يُنبت بقلبنا أملًا ثم يقطعه، إذن لمَ أنبتهما الله بقلبي؟ لمَ كان عليّ أن أتعلق بهما إن كنت سأفقدهما بهذه البشاعة؟ لمَ كانا جزءًا مني أقاسمهما أيامي؟ أي عدالة تلك يا أمي؟ أي حكمة في ذلك؟

أبكي ودموعي تختلط بكلماتي:

- ظاهره السوء وباطنه الرحمة يا ابنتي؛ لله ألطافه الخفية وحكمته التي لا نعلم عنها شيئًا؛ استغفري الله ابنتي من تساؤلاتك واطلبي منه أن يجيرك على مصابك.

في تلك اللحظة دلف «حازم» للغرفة:

- قيل لي إن أميرة الثلج قد استيقظت من نومها العميق!

قالها متجهًا إليها.

تترك حضني لتحتضن أخيها، أدامك الله لنا يا ابن قلبي.

من وسط دموعها:

- أميرتك لم يقم الأمير بتقبيلها يا «حازم»، بل قام بذبحها، ليتني أموت فينتهي معي ألمي.

يشدد من احتضانها:

- هكذا تحكمين على ثلاثتنا بالموت؛ كيف لنا أن نحيا دونك أميرتي؛ فقلبي لا ينبض إلا بنبضك وقلب أمي لا ينبض إلا بنبضينا معًا، ثلاثتنا حلقة متصلة ببعضها لا يمكننا الانكسار أو الانهزام؛ قد يتهاوى أحدنا لكن ثقي أن البقية لن تتركه ليسقط أرضًا، أنا وأمي بجانبك إلى النهاية.

تبكي بصوت مرتفع:

– أشعر أنّ كلي محطم؛ الهواء ثقيل لا تستطيع رئتاي أن تسحبه؛ لا أريد أن أتألم يا «حازم»؛ لا أريد.

– شكرًا للآلام فبفضلها نصير أقوى، لولا الألم ما اشتدت جذوعنا؛ الألم مفيد أميرتي؛ نتعلم منه لكن لا نسمح له بهزيمتنا.

من بين دموعها:

– لا أستطيع النهوض؛ الخيانة والخزي اجتمعا عليَّ فأسقطاني أرضًا.

– أعلم أميرتي؛ كما أعلم أنك محاربة بالفطرة، أتذكرين حينما تُوفى والدنا؛ كنت أكثرنا شجاعة وثباتًا؛ لم تبكي ولم تنهاري كما فعلتُ أنا.

– لكنني بنهاية اليوم جئتك وبكيتُ على كتفك.

– أعلم أميرتي، وكتفي وكلي تحت تصرفك، ابكي عليه قدر ما تشائين؛ ليس مطلوبًا منك أن تتماسكي حاليًا، لكن عديني أنك ستملكين زمام أمورك سريعًا.

يهدأ نحيبها؛ ويرتخي جسدها كمن كان في صراع مضني؛ يعدل «حازم» من وضعها على الفِراش فتذهب في النوم والدموع ما زالت تكلل وجهها؛ يلتفت إلي هامسًا:

– هيا أمي لنتركها حتى تنال قسطًا من الراحة.

أبادله الهمس:

- اذهب أنت، أما أنا فسأبقى معها.

يحتضنني مقبلًا جبيني:

- كما تشائين، لكن أرجوك لا تقسي على نفسك؛ سأكون بالخارج إن احتجتِ لشيء.

يُنهي جملته مغادرًا.

أنظر إلى «تغريد» ولسان حالي يردد:

- ماذا كنتُ فاعلة من دونك يا «حازم»؟!

الفصل الثاني والعشرون

أنتظر خروج «حازم» من غرفة «تغريد» بفارغ الصبر؛ وكلي أمل أن تسمح لي برؤيتها؛ عيناي معلقتان بباب الغرفة ترجيانه أن ينفرج على اتساعه ربما لمحتها.

يخرج «حازم» فأطالعه بلهفة:

– هل يمكنني رؤيتها الآن؟

– لم يتسنَ لي سؤالها فقد بكت كثيرًا حتى غفت بين ذراعي.

أنظر إليه بيأس:

– هل هي بخير؟

– كما هي، تبكي قهرًا؛ منهارة وفاقدة للثقة في العالم؛ سأذهب إلى الطبيبة النفسية لأتحدث معها.

قالها مغادرًا وتركني أتخبط يأسًا وإحباطًا.

***

أفتح عيني لأجد ما حولي غارقًا في الظلام، لا يوجد إلا بصيص ضوء من مصباح جانبي، أسدد بصري في أنحاء الغرفة، أجد أمي تصلي، أغلق عيني مرة أخرى لا أريد معايشة واقعي المؤلم.

ليت النوم يبتلعني أو يبتلعني الموت!

– هل استيقظتِ «تغريد»؟

– نعم أمي.

– كيف تشعرين؟

– لا أجد سوى الصمت ردًّا على سؤالها.

– هناك من يريد رؤيتك للاطمئنان عليك.

أستمر في صمتي.

– ألا تريدين معرفة مَن هو؟

– لا أريد رؤية أحد أمي. كيف لي أن أواجه العالم بعد ما حدث؟

– ما حدث لا ينتقص منك، ما حدث هو مدعاة لخزيهم لا خزيك أنت، ما حدث يكشف جوهرك الأصيل ومعدنهم الصدئ.

– لا أريد رؤية أحد أمي، ستقتلني نظرات الشفقة بأعينهم.

طرقات على الباب تقطع حديثنا، تهتف أمي:

– تفضل.

يدخل أحدهم حاملًا باقة ورد رائعة، تسأله أمي:

– ممّن؟

يجاوبها مناولًا إياها إيصال الاستلام لتوقعه:

– اسم المرسِل على الكارت المرفق بالباقة.

– تنتهي أمي من توقيع الاستلام، فيغادر الغرفة عامل التوصيل، تتجه أمي لباقة الورد فتنتشل منه الكارت المرفق، تقرأه فتتغير ملامحها. أسألها:

- ممّن يا أمي؟

- لا أحد، الكارت بلا اسم.

- أريد رؤيته أمي.

- لن يفيدك بشيء حبيبتي.

- أمي رجاءً، دعيني أقرأه.

تمرره لي، أعتدل جالسة وأقرأ:

(سلبتك «شهاب»، لكن بالمقابل أهديتك «رامز»، لا تفكري بـ«شهاب» ثانية لأني لن أتركه، «ناي»).

تدور الأفكار برأسي وتحتشد الدموع بعيني، أصرخ بأمي:

- من الذي يريد رؤيتي بالخارج، أهو «رامز»؟

تندهش أمي:

- من أخبرك؟

- أخبريه أني أريد رؤيته، أخبريه أمي.

- حسنًا ابنتي.

أنهت جملتها وهي تغادر الغرفة.

- بعد دقيقة تطرق أمي باب الغرفة:

- «تغريد» هل أنت جاهزة؟

- تفضلا.

* * *

أسدل الليل ستائره وما زلت في انتظار رؤية «تغريد»، أريد أن أكحل عيني برؤيتها، أن تهدأ خفقات قلبي القلقة عليها، روحي يسودها السواد ولا انقشاع له إلا برؤية عينيها.

- «رامز»، «تغريد» جاهزة لرؤيتك!

كانت تلك والدة «تغريد».

أتنهد ارتياحًا:

- أخيرًا، أنا قادم!

تطرق والدتها باب غرفتها، فيأتيني صوتها الشجيُّ بعد برهة:

- تفضلا.

أدلف للحجرة في أثر والدتها، أنظر إليها وكلي يُشرق برؤيتها:

- مرحبًا «تغريد»، كيف حالك اليوم؟

تنظر إليّ بجمود، نظراتها حادة كزجاج مكسور:

- أنا بخير، لذا يمكنك الذهاب الآن، ولا تنسَ أن تخبر صديقيك أنك قد رأيت آثار فعلتهما عليّ لتحتفلوا سويًّا.

- ما الذي تقصدينه؟ ومن هما صديقاي؟

- «شهاب» و«ناي»، ألا تعرفهما؟ أم أنه جزء من خطتكم؟ يكفيك تمثيل دور الشهم بينما لا تختلف كثيرًا عنهما.

- «تغريد» أقدّر ما تمرين به، لكن لا أعلم عمَّ تتحدثين؟ لا تأخذيني بذنبهما.

- كفى خداعًا، لقد سقط قناعك، لقد فضحت «ناي» خطتك، لا تمثل الصدمة، فامرأة خانت صديقتها المقربة ليس عجبًا إن خانت العالم أجمع في سبيل مصلحتها.

أختنق كمن يلتف حول عنقه حبل مشنقة، أحاول أن استجمع ما بي من صبر:

- «تغريد» أريد أن أعرف عمَّ تتحدثين؟

تشهر أمامي ورقة:

- أتكلم عن هذا!

تناولني الورقة، أقرأ ما فيها، ربَّاه إنها من «ناي» الحقيرة، كلماتها توحي وكأنني أعددت معها خطة الخيانة لأنال «تغريد» بالنهاية!

أصيح عاليًا:

- الحقيرة!!

- لم يعد هناك داعٍ لتمثيلك المتقن، ارحل من هنا ولا تعُد مرة أخرى، لا أريد رؤيتك أو رؤية أيّ منهما.

تصرخ والدتها:

- «تغريد» ما الذي تقولينه؟ اهدئي ابنتي.

- تنهض من فراشها وتخطو تجاهي:

- قبل أن ترحل أريد أن أعلم من أي خسة ودناءة عُجن ثلاثتكم؟ أي نفوس سوداء تمتلكون لتجعلوني لعبة بأيديكم؟ تقررون مَن عليَّ أن أخسر ومَن عليّ أن أكسب! تضرب صدري بقبضتها مكملة:

- هاه؟ أخبرني، أخبرني!

تستمر في طرق صدري بقبضتها والضربات تفتت قلبي، تصرخ فيّ بقوة:

- لمَ لا تجاوبني؟ ألا تسعفك أفكارك الشيطانية لتجد لي ردًّا؟! لمَ بقيت هنا؟ لمَ تريدون قتلي للنهاية؟

يدلف «حازم» للغرفة، يبهت مما يرى، يحاول التدخل لكنني أمنعه بإشارة من يدي.

أخاطبها بيأس:

- استمري «تغريد» بضربي، حطمي أضلعي إن شئتِ، اصرخي بوجهي وانعتيني بأبشع الصفات، أخبريني أني أسوأ كوابيسك وأنَّ الموت أحب إليكِ من رؤية وجهي، أني تفوقت على الشياطين في الدناءة، صُبّي عليّ لعناتك، اقذفيني بسوء ظنونك ربما خفف ذلك من حدة انكسارك، اصلبيني على حائط أحزانك واجلديني بسياط آلامك، افعلي ذلك إن كان سيحدُّ من انهيارك، وأنا أكثر من مستعدّ للتحمل.

يزداد صراخها بينما تستمر في ضرب صدري:

- كاذب مخادع مثلهما، لن أصدقك مهما قلت ومهما ادعيت أكرهك، أكرهك وأكرههما.

أمسك بيديها على صدري:

- اكرهيني كما تشائين، لكنني سأحبك حتى نهاية عمري، سأظل بجانبك مهما حاولتِ إبعادي عنك، فلن أتركك أبدًا.

يخفت صوتها تعبًا، يتهاوى جسدها أرضًا وأهوي معها:

- كفاكِ كذبًا أرجوكِ، ألا يكفيكِ ما أنا فيه، كلاهما كان يحبني وبالنهاية ماذا فعلا بي؟ قتلاني دون رحمة!

أنهت جملتها ثم انفجرت بكاءً.

أحتضنها بقوة:

- أقسم لك بحياتك التي هي أغلى من حياتي، بأنني لن أسمح لمخلوق أن يمسّك بسوء بعد الآن، أقسم لك أننا سنجتاز ذلك سويًّا ولن يهزمك شيء منذ اليوم.

تسكن حركتها ويتثاقل رأسها على صدري، تبتلعها هوّة النوم، أحملها كطفلة صغيرة وأضعها على الفِراش، لتتولى والدتها إكمال المهمة من بعدي.

أنظر إلى «حازم» ثم أغادر الغرفة وكلي ممزق من أجلها.

***

بعد ما غادر «رامز» الغرفة، ألتفت إلى أمي مستفسرًا:

- ماذا حدث؟ وفيمَ كل ذلك؟

تلتفت إليّ باكية:

- لا أعلم بني، لقد أرسلت لها الحقيرة «ناي» باقة من الورد، كان بداخلها رسالة لـــ«تغريد».

أنهت جملتها وهي تناوله الورقة، ثم أكلمت:

- حينما قرأتها أختك جُنَّ جُنونها وطالبت برؤية «رامز»، حينما رأت المسكين، انقضت عليه تتهمه عن خطة ما بينه وبين «ناي»، ثم تطور الأمر كما رأيت أنت.

أقرأ رسالة الحقيرة «ناي» وداخلي يغلي، الحقيرة تتلاعب بأفكارها، تريد أن تهزمها للنهاية، من أي شر عُجنت؟

أحتضن أمي مُواسيًا:

- لا تبكي حبيبتي، كل شيء سيكون بخير بإذن الله.

- هل «رامز» كما تعتقد أختك؟

- كلمات «ناي» تحمل في طياتها الكثير من الاحتمالات، و«تغريد» في حالة عدم اتزان، فاقدة للثقة في الجميع، لكنها تثق بنا، لذا علينا ألا ننساق وراء مشاعرنا ونفكر بعقولنا، أمّا عن «رامز»، فقد أمضيت طوال فترة الظهيرة أسأل عنه، ولم أجد كلمة واحدة تشكك بأخلاقه، الجميع يشهد له بالسلوك القويم والتصرفات الحكيمة بالرغم من صغر سنه، يقولون عنه إنه رجل كلمة، لذا أعتقد أنَّ «تغريد» مخطئة بحقه.

- كم أتمنى ذلك بني، فهو لا يبدو مغرورًا أو متسلطًا ك»شهاب»، حدسي ينبئني بذلك.

- دعي الأمر لله أمي.

قلتها خارجًا من الغرفة وبداخلي سؤال يتردد، ما معنى كلمات «ناي»؟!

حينما خرجت من غرفة «تغريد» بادرني «رامز» قائلًا:

- أعلم أنك تريد توضيحًا لما حدث بالداخل، وربما تكونت لديك شكوك ضدي كما حدث مع «تغريد»، لذا أتقبل أي ردة فعل تصدر منك.

– ليست لديّ أية شكوكٌ «رامز»، لكن «تغريد» لديها وهذا ليس في صالحك، منذ متى بدأت مشاعرك نحو «تغريد»؟

– أتصدقني إن قلتُ لك أني أحببتها منذ أن رأتها عيناي؟، يومها أحسست أنها نبضة ضائعة من قلبي، وكأنها محفورة بداخلي منذ ولدت، لكن مع مرور الأيام اكتشفت أنها تميل إلى «شهاب»، لذا طويت مشاعري وأودعتها رفوف النسيان ولم يبقَ بيني وبين «تغريد» إلا علاقة العمل.

أتنهد بتعب:

– يبدو أنك واجهت أيامًا مضنية، فحب من طرف واحد هو انتحار، لكن من أين علم «شهاب» و«ناي» بمشاعرك؟

– يقال إن نظرات العاشق فاضحة، والعمل لمدة طويلة بأي مجموعة يجعلك قادرًا على قراءة أفرادها، ربما لم أحكم قبضتي على زمام تصرفاتي، ربما سقطت من عيني نظرة حب فأدركتها «ناي»، ربما فلتت مني ردة عشق فلمسها «شهاب»، التفسيرات كثيرة، لكن أقسم لك أني ابتعدت عن «تغريد» بقدر حبي لها، وكم تمنيت لو أني كشفت لها سوء «شهاب» وعلاقته القذرة بـ«ناي».

– أكنت تعلم؟

– بالمصادفة، فلم أكن صديقًا مقربًا لـ«شهاب»، وحينها لُمته بأنَّ «تغريد» لا تستحق منه هذا، لكنه لم يكترث، جبنت عن قول أي شيء لـ«تغريد»، كيف لي أن أخبرها أنهما خائنان؟

كيف أكسر بقلبها هكذا؟ خشيت أن يقنعاها بأنَّ كلماتي ناتجة من سوء نفسي لأنها فضّلت «شهاب» عليّ، خِفت أن تصدقهما وتكرهني، وهذا أشد عليّ من الموت.

أمسك برأسي المتعب، أتنهد بغضب:

– لعنة الله على الخوف والظنون الحمقاء، وها نحن هنا بالمشفى بسبب خوفك، فلتدعُ الله أن تقتنع «تغريد» أنك لست معهم.

– أتصدقني؟

– أصدق أنك لا تشبههما، لكن ما فائدة ذلك؟ المهم أن تصدقك «تغريد»!

أنهيت كلامي وصمتٌ ثقيل أطبق علينا فماتت منا الكلمات.

الفصل الثالث والعشرون

أتصل بكل معارفي من رؤساء تحرير الصحف والمجلات، أستعمل كل سلطاتي في نشر تكذيب لادعاءات «ناي»، أستغل كل ما لديّ من نفوذ لأحاصرها، لأشوه صورتها أمام الرأي العام، في الغد سيتصدر تاريخها الأسود الصحف والمجلات مرفقا به صورتها الحسناء.

أمسك بهاتفي وأتصل بــ«سعيد» المحامي:

– مرحبًا «شهاب»، ما الجديد لديك؟

– «سعيد» أريد منك دراسة إمكانية فسخ تعاقد الفرقة مع «ناي»، مراجعة البنود والشرط الجزائي، وأوقف كل المستحقات المالية لها منذ الآن، كما أريد منك شخصًا ماهرًا في برامج تعديل الصور.

– ما الذي تنوي فعله «شهاب»؟

– سأحرق «ناي»، سأذيقها مرارة فقد الأحلام.

– اعتبر أن طلباتك قد قضيت، فأطلعني على خطتك.

– سنقوم بتصميم صور لــ«ناي» وهي بمواضع مخلة لكن مع رجال آخرين، بينما تسرب أنت خبرًا بأنك تمتلك تلك الصور، سأجعلها بائعة هوى أمام الرأي العام لتفقد مصداقيتها وعليه سأقيلها من الفرقة.

– حسنًا لكنها مطلوبة بالحفل.

– لا يهم سآتي بمن هو أكثر براعة منها، لكن «ناي» منذ اليوم لن تكون بداخل سربي الموسيقي، أريد منك خبرًا بأقرب وقت.

قلتها مُغلقًا هاتفي.

❋ ❋ ❋

أفتح عيني فيغشاهما الضوء، لا بدَّ أن النهار قد انتصف، تخاطبني أمي:

– مساء الخير حبيبتي، كيف حالك اليوم؟

– الحمد لله أمي، أشعر بأني أفضل.

– الحمد لله، هيا لتتناولي إفطارك لا بد وأنك جائعة!

– لا لستُ جائعة أمي، أين «حازم»؟

ثم أكملت بتردد:

– هل غادر «رامز»؟

– «حازم» خارج الغرفة وكذلك «رامز».

– أما زال «رامز» هنا؟ ألم أطلب منه المغادرة؟

– قال إنه سيغادر حينما يطمئن عليك، هيا لأساعدك على الاغتسال، فالطبيبة تريد أن تعاينك.

– أمي أريد الذهاب إلى منزلنا، لم أعد أطيق هذا المكان.

– حينما تأتي الطبيبة اعرضي عليها رغبتك.

قالتها وهي تساعدني على النهوض.

استقمت واقفة ومن ثم توجهنا إلى الحمام، اغتسلت وبدلت ثيابي وحين انتهيت توضأت ومن ثم استقبلت القبلة لأصلي، صليت وعيناي تذرفان الدمع وكأنهما لم تدركا بكاءً من قبل، صليت وقلبي يناجي الله احتسابًا وتفويضًا، يرجوه جبرًا وصبرًا، وفي كل مرة أتهاوى فيها سجودًا، كانت الهموم تتساقط تِباعًا من قلبي، لم أدرك يومًا لذة البكاء بين يدي الله كما أدركتها في هذه اللحظة، وكم تمنيت ألا تنتهي صلاتي!

بعد أن انتهيت من الصلاة وجدت شعورًا بالراحة يغمرني، صفاءً تامًّا مسّ روحي، وكأن ما ذرفته من دمع غسل سوادها، وكأنَّ بردًا وسلامًا مسّا جراحي فما عادت تنزف ألمًا!

بعد برهة أتت الطبيبة «نهال»:

– مرحبًا «تغريد»، كيف حالك اليوم؟

– أفضل والحمد لله.

– هل هناك ما تودين الحديث بشأنه؟

– أريد أن أغادر المشفى إن لم يكن هناك مانعٌ يُبقيني.

تنظر إليّ عمق عيني:

– عضويًّا لا يوجد سبب يمنعك، لكن نفسيًّا هذا ما عليكِ إقناعي به، هل أنتِ مستعدة لمواجهة عالمك؟

– أي عالم تقصدين؟ ما فات قد رحل دون رجعة وعالمي القادم سيقتصر عليّ أنا ووالدتي وأخي وكماني فقط.

– تنزوين عن العالم هروبًا من المواجهة؟

– ليس انزواء عن العالم، إنما أقلص عدد المارين بحياتي لئلا أتعلق بهم فيؤذونني، ولا، لا أخشى المواجهة كيف لي أن أواجه مّن سقط من عيني؟، فأولئك لا تشملهم حدود رؤيتي.

– ربما سقط «شهاب» و«ناي» من عينيك، لكن أعتقد أنهما لم يسقطا من الذاكرة بعد.

– أعلم أنهما لم يسقطا من الذاكرة، لكنني أحاول نسيانهما، فالنسيان هو أن تلفظ الأشياء من رحم الذاكرة، لكنني لا أستطيع النسيان حاليًا، لذلك أتناسى.

– سيستهلك ذلك الكثير من روحك، لأنك ما زلتِ تحملين المشاعر لهما.

– صدقيني ما عدتُ أحمل لهما سوى مشاعر الخيبة والندم، لم يعد الحبُّ طرفًا في مشاعري نحوهما، كيف للحب وللخذلان أن يجتمعا؟!

– واثقة من قرارك؟

– تمام الثقة، ربما يصيبني الضعف مع الوقت، لكن لا عودة للخلف ولا عودة لهما في حياتي.

– إن أصابك الضعف يومًا وخارت قواكِ، تمسكي بأولئك الذين إن أهملتهم انتظروكِ وإن تركتِ أيديهم لم يفلتوكِ، لديكِ عائلة رائعة تمسكي بها جيدًا، أما أنا فسأكون بجانبك طوال الوقت، إن احتجتِ للتحدث يومًا اتصلي بي، سأكون موجودة من أجلك.

لا أعلم لمَ أخذتني كلماتها إلى «رامز»؟!

هززت رأسي مبددة الفكرة:

– شكرًا دكتورة ««نهال»، هل يعني هذا أنه يمكنني الخروج من المشفى؟

– لم أصدق الباشمهندس «حازم» حينما أخبرني أنكِ ذات روح محاربة، لكنكِ أثبتِ لي ذلك، لذا لا يمكنني احتجازك أو معارضة قراراتك، بل عليّ مساندتها لأني واثقة من أنك امرأة لا تقهرها الأيام.

أنهت جملتها وهي تدون الإذن بالخروج بلوحة المريض الخاصة بي، ثم أكملت: – سأشتاق إليكِ «تغريد»، لذا لا تنسي أنني هنا دائمًا من أجلك، وبالمناسبة أنا من أشد المعجبين بعزفك، وأتمنى أن أسمعك قريبًا بحفل الوفد الروسي.

أنهت جملتها ومن ثم غادرت الغرفة.

ألتفت إلى أمي:

– هل يمكنك إخبار «حازم» كي ينهي إجراءات الخروج من هنا؟

– حسنًا ابنتي.

قالتها مغادرة الغرفة، تاركة إياي وحيدة مع سؤال يدق رأسي بلا هوادة، ماذا بعد؟

* * *

حينما غادرت الطبيبة الغرفة، أسرعت إليها لأطمئن على حالة «تغريد»:

- مرحبًا دكتورة ««نهال»، كيف حالها اليوم؟

- مرحبًا باشمندس، هي بخير حال اليوم، امرأة تحاول الصمود وتجنب الانهيار قدر ما تستطيع، لذا لديّ أمل أنها ستخرج من كل هذا الدمار بشخصية أقوى وأكثر وعيًا، قد يصيبها الوهن أحيانًا، لكنها لن تنهار مرة أخرى وبالمناسبة قد سمحت لها بمغادرة المشفى.

- حقًّا؟، هل يعني هذا أن «تغريد» تعدت مرحلة الخطر؟

- النفس البشرية مساحة واسعة، بها الآمن والخطر، يظهر لنا دائمًا ما هو آمن وتستتر وتتوارى خلفه مساحات الخطر، لا تنمحي ولا تندثر تظل ساكنة كامنة حتى يأتي ما يؤججها فتنفجر.

الذي يفرق بين نفس وأخرى هو كيفية تقبلها لتلك المساحات، هناك من يستوعبها ويجد لنفسه طريقة للتعامل معها فلا تنفجر بوجه أيامه، وهناك من يتركها على سجيتها دون وعي فتكون له هوّة عند الأزمات.

- لديَّ سؤال أخير.

- تفضل.

- هناك صديق لـــ«تغريد»، الأستاذ «رامز»، ذاك الذي يقبع معنا منذ أتينا للمشفى.

- نعم أعرفه، ما به؟

- تقدم لخطبة «تغريد»، وبالمناسبة هو مدير أعمال «شهاب»، بالطبع لم أعطه ردًّا لأنَّ هذا قرار «تغريد» وحدها، سؤالي هنا هل وجوده بجوار «تغريد» يشكل أدنى خطر على حالتها؟

- ستواجه «تغريد» الجميع على أية حال، كون أنه مقرب من «شهاب» سيجعله محرقة أحزانها، فـ«تغريد» لن تسمح له بالاقتراب إلا إن وجدت منه صدقًا يجعلها تمنحه ثقتها، لا تنسَ أن «تغريد» فاقدة للثقة بالعالم، لذا وجوده ليس سيئا كما تظن، ربما كان متنفسًا لما يعتمل بداخلها، أثق أنّ «تغريد» الآن أكثر من قادرة على إدارة أمورها.

- شكرًا لوقتك دكتورة، سعدت بالتعرف عليك.

- بأي وقت أنا موجودة أستاذ «حازم» تحت أمركم.

أنهت جملتها مغادرة، بينما عدت أنا حيث يوجد «رامز»، «رامز» الذي لم يغادر لمنزله إلى الآن!

❋❋❋

منذ نقاشي الأمس مع «حازم» والصمت يغلفنا، ذهب «حازم» في إثر الطبيبة كي يطمئن على «تغريد»، وتركني قابعًا أمام بابها حتى سئمته، وكأنه حائل تتحطم عليه أمنياتي برؤيتها والاقتراب منها، بعدها خرجت والدة «تغريد» لتسألني:

- أين «حازم»؟

- يتحدث مع الدكتورة ««نهال».

لم أكد أنهي جملتي حتى أتى «حازم»، بادرته والدته قائلة:

- لقد سمحت الدكتورة لـ«تغريد» بالمغادرة، لذا عليك البدء في إنهاء إجراءات الخروج.

- نعم أمي لقد أخبرتني الطبيبة بذلك، سأذهب الآن لإنهاء كل الأمور المتعلقة.

أنظر إليهما بعدم فهم:

- ما الذي حدث؟ هل «تغريد» مغادرة؟

يجاوبني «حازم»:

- نعم «تغريد» أصبحت بخير والحمد لله، لذا سمحت لها الطبيبة بالمغادرة، أستأذنك لأنهي إجراءات الخروج.

ينتهي من جملته موليًا إيانا ظهره، ألتفت إلى والدة «تغريد» مخاطبًا:

- هل يمكنني رؤيتها، فقط قبل أن أغادر؟

- سأسألها بني.

قالتها وهي تدلف إلى الغرفة مرة أخرى تاركة إياي أحترق في انتظار الجواب.

***

أقلب في الصحف اليومية فأجد مقالات تتكلم عن حياتي، عن فتاة الناي التي جاءت من القاع على أكتاف الرجال! عنوان مدوٍّ، مقالات تتناول نشأتي وسنوات عمري، أخبار باسم (وشوشة) تقدم معلومات مفادها أني امرأة صائدة للرجال، بأني بائعة هوى، مقالات تتعمد تشويه صورتي، و«شهاب» بالتأكيد وراءها.

أمسكت هاتفي وكوّنت رقمه:

- كنت أنتظر مكالمتك، ما رأيك بهديتي لكِ؟

- لم أتفاجأ لكن للأمانة لم أتخيل أنك بهذا الغباء.

- «ناي» اهدئي، ما بك لِمَ أنت حانقة هكذا؟ هل ما نشر عنك محض افتراء؟ ألستِ بائعة هوى رخيصة الثمن!

- ربما كنتُ بائعة هوى رخيصة الثمن، لكنك لا تقل عني رخصًا، اسعد بما فعلته لليوم فقط، فلن أسكت «شهاب»، سأنشر صورنا بنفس الصحف والمجلات، سأظهر بالبرامج التلفزيونية، لأحكي عن غزواتك بالفِراش، لنكن علكة يمضغها الجميع، وليكن بعلمك أني امرأة لم تعتد الخسارة وإن حدث ذلك يومًا فلن أكون الخاسرة الوحيدة وأكثر ما يطمئنني أنَّ «تغريد» لن تعود لك.

- ستعود لي أؤكد لك ولن يكون هناك خاسرٌ سواكِ، بالمناسبة لقد تم فسخ تعاقدك مع الفرقة، وداعًا «ناي».

أنهى جملته مغلقًا هاتفه بوجهي، أغلقه ومعه أغلقت نوافذ الأمل أمامي، خسرت كل شيء بلحظة، أحقًّا خسرت؟! والله أبدًا لن يحدث، فـ«ناي» لا تعرف للخسارة طعمًا، تستعر النيران بداخلي لتحرق روحي وتنطلق صرخة حقد من جوفي، صرخة يهتز لها جسدي وتوقظ الشرَّ الغافي بين جنباتي!

لِمَ توقظ شيطاني يا «شهاب» وقد روضته من أجلك؟! حسنًا لم تترك لي شيئًا يمنعني من طعنك، لم تترك لي قبسًا من أمل في العودة إليك أو إحياء حبنا، أنهيتنا حد التناحر!

أمسكت هاتفي وكونت رقمًا:

- مرحبًا، لديّ ما تريد، حول لحسابي المبلغ المتفق عليه أولًا ومن بعدها سأرسل لك طلبك.

- هل أخبرتِ «حازم» أمي؟

تهم بإغلاق باب الغرفة مجاوبة:

- نعم حبيبتي أخبرته، لكنْ هناك أمرٌ آخر.

- ما هو؟

- «رامز» يريد رؤيتك قبل أن يغادر.

- لا أعلم أمي حقًّا، ما الذي يمكن أن يُقال بعد ما حدث بالأمس؟

- قابليه واشكريه لوجوده بجانبنا طوال الأيام الفائتة، لن تخسري شيئًا حبيبتي.

- حسنًا أمي.

تخرج أمي لتأذن له ومن ثم تعود، أستقيم في جلستي لأجده يدلف للغرفة بأثر أمي، يبادرني:

- كيف حالك اليوم؟

أجاوبه مرتبكة:

- بأفضل حال والحمد لله، شكرًا لك على وجودك أستاذ «رامز» وآسفة عما حدث بالأمس.

- أما أنا فلست أسفًا على ما بدر مني من كلمات، وما زلت أقولها لك، لن أتخلى عنك ولن أتركك حتى وإن قمتِ بإبعادي ووضع الحواجز والألقاب بيننا، ستجدينني دائمًا على بعد طرفة عين منك،

لست «شهاب» ولم أكن يومًا رفيقًا لـ«ناي»، لم أرَ سواكِ أنتِ، ولن أرى غيرك!

لذا كوني بخير من أجلك ومن أجل عائلتك ومن أجل الأشخاص الذين جلُّ أمانيهم أن تكوني بخير وسعيدة حتى وإن كانت سعادتك لا تشمل وجودهم جانبك، سأغادر الآن لكن اعلمي أني سأكون بجانبك دائمًا أيًّا كان قراركِ.

- لن أعود لـ«شهاب» اطمئن.

- لا يعنيني «شهاب» بقدر ما يعنيني سعادتك.

- سعادتي حاليًا تكمن في الابتعاد عن الجميع، أن انهض نفسي، أطبب جراحي، أرتب حياتي المبعثرة وأقتطع منها كل نبت شيطاني.

- لِمَ تمشين الطريق وحدك بينما يمكنك قطعه برفقة صديق؟ دعيني أساعدك، لا أطلب أكثر من ذلك.

- لا يمكنني أن أزجَّ بك وسط حُطامي، أخاف أن أنهار فتواريك أنقاضي.

- لن تسقطي ولن أسمح لك بذلك، فقط ثقي بي وامنحيني فرصة واحدة.

- لستُ بحال جيد لأتخذ قرارًا كهذا، لا أريد أن أؤجج بداخلك أملًا ثم أطفئه، أعدك بأني لن أعمل على إبعادك لكن بنفس الوقت لن تجد مني قربًا.

- وهذا أكثر من كافٍ بالنسبة إليّ حاليًا، شكرًا لك «تغريد»، والآن سأغادر، لن أقول وداعًا، لكن سأقول إلى اللقاء.

- ترتسم ابتسامة باهتة على وجهي:

- إلى اللقاء «رامز».

يبادلني الابتسام ومن ثم يغادر.

- «تغريد» هل أنت بخير.

ألتفتُ إلى أمي:

- نعم أمي، أنا بخير حال.

- حسنًا حبيبتي هيا لنحزم أمتعتنا فما عادت لي قدرة على رؤيتك طريحة الفراش.

***

أغلقت الهاتف مع «ناي» وكلي انتشاء، قضيت على «ناي» فتبقى لي عودة «تغريد»، أمسكت بهاتفي ومفاتيح سيارتي وغادرت منزلي في طريقي للمشفى، حينما خرجت من منزلي، ذهبت إلى الصحفيين المرابطين أمام بيتي قائلًا:

- انتظروا قريبًا خبر زفافي أنا والآنسة «تغريد»، قلتها ومضيت تجاه سيارتي مستمتعًا بمحاصرتهم لي وإمطاري بأسئلتهم.

حينما وصلت لغرفة «تغريد» لم أجد ذلك البائس «رامز»، ولم أجد «حازم» أيضًا، طرقت باب غرفة «تغريد»، فإذا بوجه والدتها يطالعني!

- مساء الخير سيدتي، كيف حالك وحال «تغريد»؟

الغضب يكسو ملامحها، تصيح في بغضب:

- ما الذي أتي بك؟

– جئت لأطمئن على حال زوجتي.

تصرخ فيّ:

– لم تكن زوجتك ولن تكون.

يأتي صوت «تغريد» من الداخل:

– أمي مع من تصرخين؟

– تجاوبها والدتها:

– لا شيء ابنتي، إنسان عديم الفهم ليس إلا.

أقترب من الباب صائحًا:

– بل أنا «تغريد»، «شهاب».

– دعيه يمرُّ أمي.

تتراجع والدتها سامحة لي بالدخول كسجان على وشك تحطيم رأس سجين لديه، أدلف وكلي سعادة فها هي «تغريد» تعطيني أملًا.

– ما الذي جاء بك «شهاب»؟

– جئت لأطمئن عليك «تغريد»، فأنتِ زوجتي.

– تبتسم باستهزاء:

– زوجتك! على حد علمي الزفاف لم يكتمل بسبب خيانتك لي، خيانتكما.

– «تغريد»! «ناي» كاذبة، تلك الصور ملفقة.

– ما كان الأعمى ليخطئكما، ملفقة أم لا ما عدت أكترث، صدقني قد محوتكما من حياتي منذ تلك الليلة.

- «تغريد»! أنت تظلمينني!

- أعن الظلم تتحدث؟ أكان عدلًا ما فعلتماه بي؟ أكان عدلًا أن تغتالاني بتلك الطريقة؟ والآن تريد الاستمرار في تلك المسرحية الهزلية؟ أي عدالة لديك لتتكلم عن الظلم؟

- قلت لكِ إن الصور ملفقة، لم يكن هناك شيءٌ بيني وبين تلك الحقيرة، لمَ لا تصدقينني؟

- أصدقك تمامًا «شهاب»!!، بحقّ الأيام التي كنت تساومني فيها على مبادئي، بحقّ الحروب الطاحنة التي كنت تشعلها داخلي جرّاء متطلباتك اللاأخلاقية، أصدق كما تصدق أنت أنّ الصور حقيقية، فلا أحد قادر على تلفيق صور بهذه الدقة!!

صدقًا أقول تلك الكلمات ولا أجد بداخلي سوى الاحتقار لك، أرجو الا أراك هنا مرة أخرى.

- «تغريد»، أين ذهب حبُّك لي؟

- تساقط مني أثر صفعة الخيانة المدوّية، الوداع إلى الأبد «شهاب»، يمكنك الانصراف الآن!

- «تغريد»! امنحيني فرصة لأثبت لكِ أنها كاذبة، ولأثبت لكِ صدق حبي.

- كم تشبهان بعضكما البعض!، كيف لم أرَ ذلك من قبل؟ عُد إليها فأنا متنازلة عن معرفتكما.

أتفرس في ملامحها فتموت الكلمات على لساني، حاولت استعطافها بنظراتي لكنها كمن أصابها العمى، لذا لم أجد حلًّا سوى المغادرة على أمل معاودة الكرة فيما بعد فأنا أعلم «تغريد» متى تقفل أبواب تفهمها.

***

تنساب الأيام من بين يدي، ولا أملك سوى مشاهدتها فاقدة للحيلة كفأرة تائهة بمتاهة، أنا «ناي» التي لم يعلق بقلبها أيًّا ممن مرُّوا بساحاتها علقت بـ«شهاب»، «شهاب» الذي لفظني من حياته وكأني مرض خبيث وجب اقتطاعه، وكأني لم أمسَّ مشاعره وكأننا لم نتقارب يومًا!!

لكنني تعلمت منه درسًا أنّ الحب لا يُعانق العهر، وأنّ الرجل مهما كانت مشاعر الحب بقلبه متأججة، لن يؤمن يومًا بامرأة سلمته نفسها، أنظر إلى حالي متحسرة، قلبي يئن ألمًا جرّاء المقارنة بين بتره لي وبين محاولاته الدؤوبة للعودة لـ«تغريد»!!

ومما زاد حسرتي أني اليوم استلمت خطابًا بفسخ تعاقدي مع الفرقة مرفق به شيك بقيمة الشرط الجزائي، بضع كلمات على ورقة وبضعة أرقام هي كل ما جنيته من عشقي لـ«شهاب»!

هل يدرك أحدكم مدى حسرتي؟ لكنني ما تعودت الانزواء والاستكانة، ما تعودت سوى خوض المعارك للنهاية، لذا عليّ أن انتقم منه، أن أحرقه كما أحرق قلبي ومستقبلي الفني، أن أذيقه من نفس الكاس ليعلم قدر ألمي وما سببه لي من مرارة!!

أمسك هاتفي وأتصل:

- مرحبًا هل وثقت الأوراق باسمك؟

- كل شيء تمّ «ناي»، اطمئني، الغريبة أنه لم يقم بتسجيلها من قبل.

- قلت لك إن غروره سيجعله ينسى هذه النقطة، متى ستعلن عنها؟

- بعد انتهاء الحفل مباشرة؟

- لِمَ ليس قبله ببضع ساعات؟

- هكذا تكون الفضيحة أكثر دويّا، كما أنها ستكون دعاية قوية لتلميعي فأنا لست بشهرته.

- تمتلك عقلًا شيطانيًّا، بالتوفيق.

- لدي أنتِ «ناي»، فما حاجتي للشيطان؟!

أغلق الهاتف وقبضة ألم تعتصر قلبي، بينما لسان حالي يردد:

- أهذه نهايتنا؟ لمَ فعلت بنا ذلك «شهاب»؟

الخاتمة

الحفلة الموسيقية

بعد مرور شهر...

«تغريد» فقرتك، هل أنت جاهزة؟ –

. كان هذا صوت «رامز»، التقطت نفسًا عميقًا والتفتُّ إليه:

– نعم «رامز»، أنا جاهزة.

يقترب مني قائلًا:

–»تغريد» أيًّا يكن، تذكري أني بجانبك، ولن أتركك أبدًا، بالرغم من ثقتي بأنك لا تحتاجين لأحد، فقط اعلمي إن كان على أحد أن يشعر بالعار فلن يكون أنت، بل «شهاب» و«ناي» من عليهما أن يشعرا بذلك، بل وعليهما التواري خزيًا لما فعلاه!

هيا واجهي العالم أجمع، ما كان للشمس أن تتوارى ضعفًا، كوني «تغريد» التي طالما أحببتها وسأظل أحبها حتى يواري الثرى جسدي.

أنظر إليه بخواء، كم تمنيت أن أسأله، كيف لشخص قوي مثله أن يُغرم بحُطام امرأة مثلي؟! كيف له ألا يرى أنقاض روحي التي يرزح تحتها قلبي؟! لمَ قابلتُك يا «رامز» بعد أن فقدتُ روحي؟ اكتفيت بأن أومأت برأسي موافقة واتجهت ناحية المسرِح.

- «تغريد»، سأقف بجوار الستار، كي أتمكن من النظر إليك، مشيتِ شوطًا طويلًا وحدك، كلليه اليوم بنجاحك، اعزفي بمشاعرك وقلبك، اغزلي من الخسارة والغدر ثياب التألق والازدهار، غردي لي حبيبتي، أحبك.

شبح ابتسامة يرتسم على وجهي:

- شكرًا لك «رامز» ما كنت أستطيع فعلها لولا وجودك جانبي!

أتركه واتجه إلى المسرح، أتمسك بكماني وكأنه طوق نجاة، أقف أمام الميكرفون، على يميني البيانو حيث يقبع «شهاب»، فأشيح بوجهي بعيدًا عنه، أنحني تحية للجمهور ومن ثم أبدأ العزف.

- أنا «تغريد رائد»، طير مغرد داخل سرب من الطيور الرائعة، أو التي كنت أحسبها كذلك، لقد تم اقتطاعي من السرب بمنتهى الحقارة، نعم تم اقتطاعي، كنت أتخيل أننا كيان واحد لا يمكن لأحد منا أن يناحر الآخر أو يغدر به، لأنَّ الطيور أنقى من أن تعامل بعضها البعض هكذا!!

وكم كنت ساذجة! أنا «تغريد رائد»، أبلغ السادسة والعشرين من العمر، يدي تحمل دائمًا قوس، قوسًا يعزف على أوتار القلوب فيصيب المشاعر في العمق، قوسًا من شدة تعلقي به، تحسبه جزءًا مني، لطالما كان التعلق بالأشياء شديد القسوة تجاهي، إلا كماني، فهو الشيء الوحيد الذي كلما تعلقت به زادني قوة وسموًّا.

أبدو للناظر أني أحتضن كماني، إلا أنه في الحقيقة من يحتضنني، يشع الدفء بروحي، يستوعبني ويغزل من خسائري النفسية، انتصارات موسيقية، تحبس الأنفاس بالصدور انبهارًا، وتميل معها القلوب عشقًا، به أعبر عن مشاعري، كما يعبر الكاتب عن أفكاره بالكلمات، رائدة في مجالي، هكذا يثني علي النُّقاد، ورائدة في خسارة الأحباب، هكذا كان قدري!!

الحياة لديّ أبيض وأسود كالكمان، أوتار بيضاء ومفاتيح سوداء، لكن سواد البشر يتفوق، هذه «تغريد» عازفة الكمان، أمّا «تغريد» الأنثى فلها قصة أخرى، تتشابه مع قصص الكثير من الفتيات، نفس النهاية المخزية وصفعة القدر المدوّية، قصتي تتلخص بأني طُعنت من أقرب الناس إليّ!!

صديقة كنت أعدها أختًا لي وربما أخي لم يكن له عندي نفس الحظوة! محت تاريخنا معًا بلحظة، وكأنني مجرد نكرة، باعتني من أجل خطيبي «شهاب»، نعم إنها نفس القصة الرديئة لكن الأشخاص مختلفون، فالتاريخ لا يكف عن التكرار والبشر أكثر تكرارًا منه، وتكرارهم لا يدفعهم للملل أبدًا!

لا أريد أن أسرد عليكم التفاصيل الكاملة للخيانة، فالناس قادرة على تخيل السوء بمنتهى الدقة والأمانة، لكن القدر كان بي رحيمًا، فأرسل إليَّ «رامز» ليكون محرقة أحزاني وشفائي، ظلّ بجانبي، يحثني على مواجهة ما يُقال وما يتردد بالأخبار بنفس ثابتة، دفعني للتدريب على فقرتي الموسيقية بالحفل، لم يسمح لي بالانهيار، تحمل عواصف حزني الهوجاء بمنتهى الصبر!!

بفضله بعد فضل الله عليّ، عبرت من عتمتي إلى النور، أصبحت الآلام رمادًا تذروه رياح الأمل، هل سيصدقني أحدكم إن قلت إني لا أشعر بالسوء تجاههما؟! أتمنى لهما السعادة التي ينشداها، ما عادت تؤلمني خيانة «شهاب»، صحيح أحببته، لكنه لم يكن قريبًا مني بقدر قرب «ريناي»، لم أقاسمه الفرح والضحكات، لم أشاركه المواجع والمخاوف، كان متغيرًا في حياتي، أمّا هي فكانت أحد ثوابتي، مرادفًا

لي، روحي بجسد آخر، دعوني أخبركم أنّ مشاعر الخيانة مؤلمة وألمها يتناسب مع مكانة الأشخاص بقلبك!

تصبح الخيانة قاتلة إذا أتت ممن تقاسمت معهم أنفاسك وروحك، ممن شملتهم بين جنباتك كقلب ثانٍ، لم تكن خيانة «شهاب» لتقتلني، لكن خيانة «ريناي» فعلت بي ذلك، لقد قتلتني بمنتهى الحرفية وبدم بارد، حقًّا لا أعلم كيف واتتها القوة لتفعل بي ذلك؟!

وهنا يأتي السؤال القاتل، هل كان لقاؤهما يستوجب ذبحي ليبارك لهما القدر؟ أم كنت بالنسبة إليهما بلا ثمن؟! الآن أعزف بدمع قلبي، أحتضن كماني بكل ضعفي لأبدو ثابتة، أسمع الجماهير هامسة:

- كم هي قوية!، كيف لها أن تقف شامخة هكذا بعد الفضيحة المدوّية؟!

نعم أبدو قوية، ثابتة، لكن لا أحد يدرك النوتات الخاطئة والمرارة التي أحتفظ بها لنفسي، لا أحد يدرك كم أعاني لأبدو هكذا، اليوم أعزف آخر مقطوعة لي داخل السرب المغرد، الليلة أترك «شهاب» و«ريناي» وكل الغدر والخذلان معهما، الليلة أطوي صفحتهما وأغمض عيني لئلا يعلق بها صورتهما!

لأبدأ فصلًا آخر من حياتي، فصلًا جديدًا لا أملك فيه سوى نفسي وكماني، أعيد بناء روحي المنهارة، أجمّل ندوب قلبي، أعيد ترتيب أوراقي، ربما قررت يومًا الاشتراك في سرب مغرد آخر، فكما تعلمون، الطيور لا تغرد منفصلة.

في صباح اليوم التالي...

تطالع الجريدة وابتسامة انتصار تعلو وجهها، وكأنها حققت أكبر أحلامها، ترفع صوتها قارئة العنوان الرئيسي للجريدة وكأنَّ ما تراه بعينيها لا يكفيها لتصدق، فوجب عليها أن تُسمع أذنيها الكلمات لتتأكد (ما بين مساء باهر ونهار مظلم، سقط «شهاب القلوب» تحت طائلة القانون)، تضحك بانتشاء، تضحك ملء قلبها وبعمق روحها المنكسرة!

بعد برهة تخفت ضحكاتها فتكمل قراءة الخبر:

(في الساعة الثانية من صباح اليوم، تقدم الموسيقار اللبناني (فادي رماح) ببلاغ لقسم شرطة أول التجمع الخامس يتهم فيه الموسيقار المصري المشهور (ش. ا) بسرقة مقطوعته الموسيقية المسجلة باسمه في هيئة الرقابة على المصنفات الفنية منذ ما يقارب الشهر، حيث قام الموسيقار (ش. ا) بعزفها هو وفرقته في حفل سياسي كبير بالقاهرة أذاعته القنوات الفضائية ليلة أمس، وقد تم إحالة المحضر مصحوبًا بالدلائل وبأوراق الملكية للنيابة العامة للقيام بالتحقيق في الواقعة، لتضاف تلك الفضيحة لمسلسل فضائح الموسيقار (ش. ا) مؤخرًا.

وقد صرح (فادي) في حواره مع مراسلنا بأن الموسيقار (ش. ا) لم يقم بنقل جزء من سيمفونيته فقط، بل قام هو وفرقته بعزفها كاملة مما ينفي شبهة التشابه أو توارد الأفكار، وأنه بجريمته هذه لم يسيء إلى نفسه فقط بل أساء الى اسم بلده العظيم مصر، وأنَّ ما فعله عار عليه).

(يعد نقل أكثر من ٤ موازير موسيقية كاملة متتالية تكون جملة أو نصف جملة موسيقية من لحن ما سرقة)

تُلقي بالجريدة جانبًا ومن ثم تهرول تجاه حاسوبها الشخصي لتتابع آخر أخبار الصحف الإلكترونية وردَّات الفعل على مواقع التواصل، عيناها تلتهمان الأسطر المتعلقة بالخبر، عيناها تلمعان كآلاف النجمات، لقد حققت انتقامها من «شهاب» ونفذت وعدها له، فهي لن تكون الخاسرة الوحيدة! تمسك بهاتفها وتكوِّن رقمه، يرن الهاتف بلا مجيب، تكرر الاتصال فيجيبها صوت «شهاب»:

- من؟

***

يتصاعد رنين الهاتف مبددًا حلمي المثير مع «ناي»، أمد يدي لإسكات صوته، وأعود مكملًا حلمي! فمنذ أن فارقت «ناي»، صارت أحلامي بها هي ما يطفئ شهوتي، يتصاعد الرنين مرة أخرى، أمسك الهاتف والحنق يملأني، أجيب بعيون مغمضة وصوت مثقل:

- من؟

- حبيبتك «ناي»، أتتذكرني؟

لوهلة تخيلت أنَّ ذلك جزء من الحلم، فتحت عيني لأتأكد، فوجدت الهاتف معلقًا بيدي!

أجاوبها ببرود:

- لم تتصلين؟ ألم أنتهِ منكِ؟

- هل طالعت صحف اليوم؟

- ولمَ أطالعها فأنا على ثقة أنَّ حفل البارحة كان مدويًا ومبهرًا، حفل لم تكوني أنتِ جزءًا منه بلا أسف، ولن تشهدي مثله بحياتك ثقي بذلك.

تضحك عاليًا ضحكة تقطر سخرية:

- أتعلم «شهاب»، كنت أظنك من الذكاء لتفهم أني امرأة كالشجر لا أحترق وحيدة بل أحرق الغابة بأكملها معي، ولا أهوي إلا ويتهاوى معي الآخرون تأثرًا، فالطيور لا تتساقط وحيدة، بل تتلقفها الشِّباك مجتمعة، حقًّا سأشتاق إليك، الوداع «شهاب»!

تُنهي جملتها مُغلقة الهاتف.

ألقي بالهاتف جانبًا، أغلق عيني في محاولة لمعاودة النوم، لكن كلمات «ناي» تطنّ حول رأسي، وتخز فكري فيردد:

- ما معنى كلمات «ناي»؟

رنين الهاتف يعاود مرة أخرى، ألتقط هاتفي بنفاد صبر، أجاوب الاتصال فيأتيني صوت «سعيد» المحامي قلقًا:

- «شهاب»، أما زلت نائمًا؟

أجاوبه بضيق وكدر:

- ماذا هناك؟

- رباه، «شهاب» العالم يحترق وأنت ما زلت نائمًا، لديك استدعاء للنيابة، هيا استيقظ واقرأ الأخبار ريثما آتي إليك.

باستنكار ردّدت:

- النيابة!، ما الذي حدث؟

- تم تقديم بلاغ ضدك من قبل الموسيقار اللبناني (فادي رماح) يتهمك فيه بسرقة مقطوعته الموسيقية.

أنتصب واقفًا:

- مَن؟ ماذا؟ أتمزح؟ مَن (فادي رماح) هذا لأسرقه؟ وأي مقطوعة تلك التي يدّعي أنني سرقتها؟

- تلك التي قمتَ بعزفها بحفل الوفد الروسي ليلة أمس.

أصيح باستنكار:

- لا بدَّ أنك تمزح؟ أهذه مزحة؟

- للأسف «شهاب» لديك استدعاء رسمي من النيابة، جهّز نفسك ريثما آتيك لنذهب معًا للتحقيق.

أنهي المكالمة والعالم يدور من حولي، أفتح محرك البحث بهاتفي، أبحث عن آخر الأخبار، أفتح عيني على اتساعهما، الخبر يتصدر جميع الصحف القومية، عيناي لا تصدقان، ذهول تام يتملكني، سؤال كالقنبلة يفجر عقلي:

- كيف؟! أعضُّ يدي ندمًا، بين عشية وضحاها ولتني الحياة ظهرها مبتعدة عني، كم فضيحة كابدتها جرّاء غروري ودناءة أخلاقي؟!

أخرُّ يأسًا كفأر عالق في متاهة، أغلقت طرق النجاة أمامي، أتذكر كلمات «ناي» وحقد أعمي يتملكني!

أضرب بهاتفي عرض الحائط صارخًا بحجم خسارتي:

- «نااااااي»، أيُّ شيطان أنتِ!

